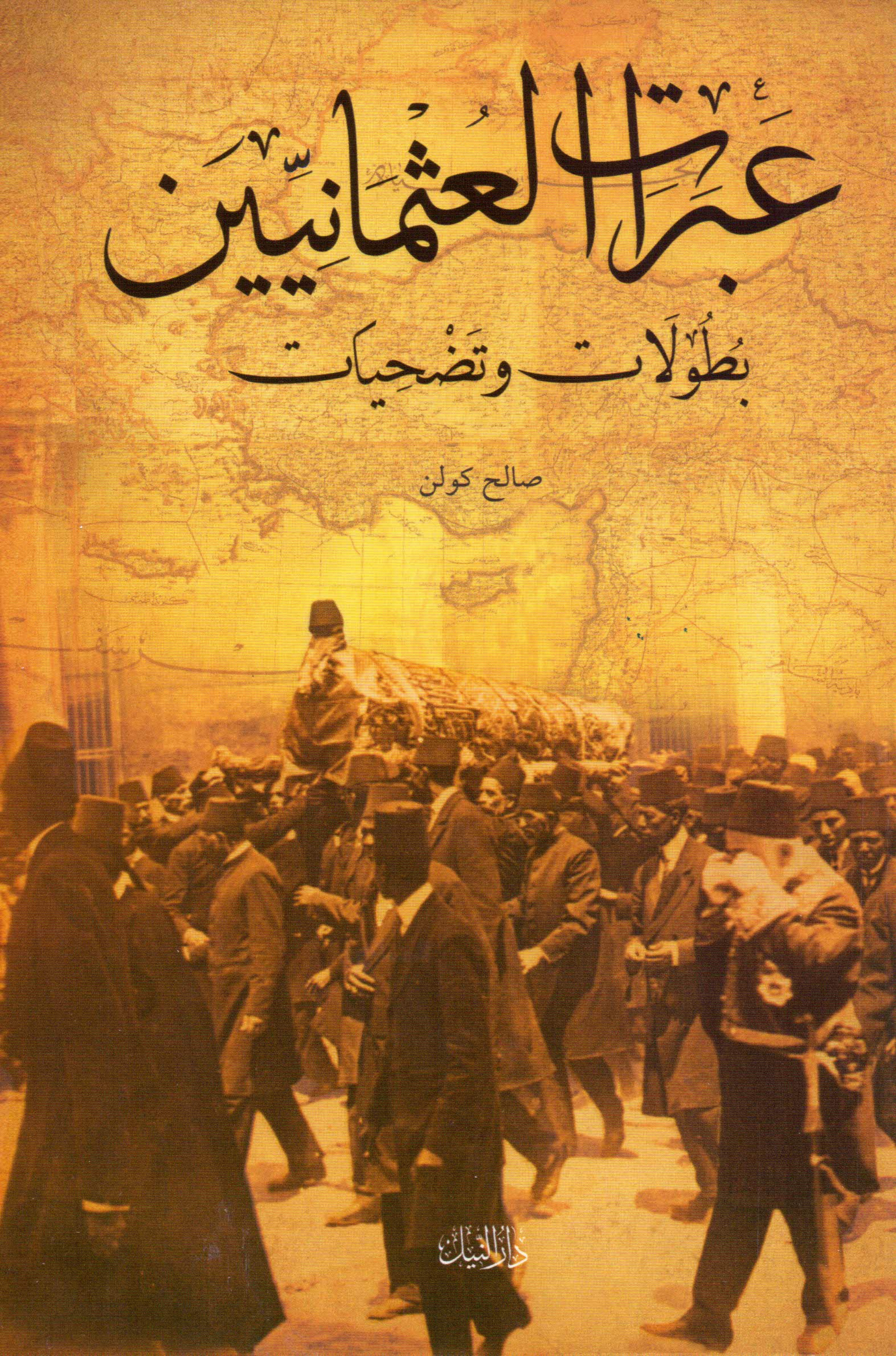


عَبَرَاتُ العُثمانِيِّين
بُطُولَات وتَضْحِيات
صالح كولن
دار النيل

عَبَرَاتُ العُثمَانِيِّين

بُطُولَاتٌ وتَضْحِيَاتٌ

الكتاب الذي بين أيديكم ينتهج الأسلوب القصصي الجميل في عرض الوقائع التاريخية التي تتخللها بعض الأحداث المثيرة الحزينة.

يحدثنا الكتاب عن شخصياتٍ عاشت في حقب مختلفة للدولة العثمانية، وضحّت بأرواحها في سبيل القيم التي قامت عليها تلك الدولة على مدار العصور.

ويتميز كتاب "عبرات العثمانيين" بأسلوبه الأدبي، وواقعية قصصه، وتجنبه الطرز الحماسي.





عبرات العثمانيين

"بطولات وتضحيات"

صالح كولن



عبرات العثمانيين

"بطولات وتضحيات"

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير

إسماعيل كايار

مراجعة

عبد الله البسطويسي - يوكسل جليتار

تصحيح

د. عبد الجواد محمد الحردان

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-622-6

رقم النشر

496

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 حد- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

عبرات العثمانيين

"بطولات وتضحيات"

تأليف

صالح كولن

ترجمة

د. مجدي حسنين إسماعيل حسن




بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

آخر حرّاس الأقصى........ ٧

الهجوم على الصُّرَّة ١٩

منزلة الأجيال الثلاثة: الشهادة ٢٥

كتيبة أضنة "١٢٥"........ ٣٧

عبرات العثمانيّين ٤٩

الصحراء والبحر ٦٥

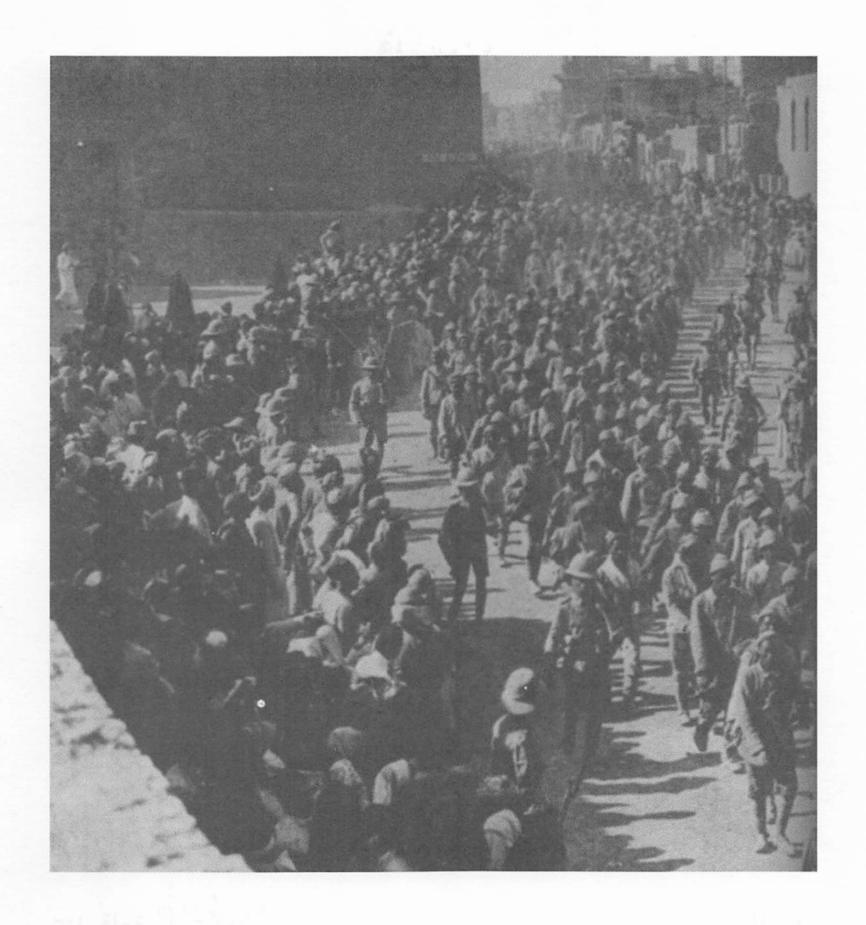
لا تتركني وحدي، يا رفيق الآخرة! ٧٥

محمد فخر الدين الأُورْفويّ........ ٨٥

الإعدام رميًا بالرصاص ٩٧

عند قلعة "أَسْتَرْكُونْ" ١٠٧

صَاوْجِي بك ١٢٩



خروج جنود العثمانيين من القدس الشريف بعد الاحتلال الإنجليزي (١٩١٧م)

آخر حرّاس الأقصى

نهض فجأة قائلًا: "إلهي، هذا المسجد الأقصى!"، كان ينتظر ساكنًا كأنّه تمثال، ثم حملق ونظر تارة أخرى حائرًا، خائفًا، كأنّه يستوثق ممّا يراه.

وسرعان ما توقّف بغتة في متحف المجسّمات، ثمّ تغير وجهه قائلًا لحفيده: " كأنّي تجوّلت في تركيا كلّها!"

تجمّع العرق بسرعة في أخاديد خطّتها الأعوام في جبهته؛ فبدت على وجهه علامات الهرم، وكان هو وحفيده ينتظران في طريق الرحلة المتّجهة إلى الخليج، وكان الطفل الصغير يحاول أن يفسّر ما يحدث منذ قليل قائلًا:

- يا للهول! كأنّ جدّي لم يبلغ من الكبر عتيًّا، أمّا أنا الشابّ فكم تعبتُ من المشي!

- هيّا، فلنمضِ في طريقنا، فأنت شابّ يافع، ولو شكوت أنت أيّها الشابّ اليافع من وعثاء الرحلة، فماذا عساه أن يقول من هو في مثل سنّي! انظر، فلنتقدم من هذا الجانب، ولنعد من هناك من معبر البوسفور من شاطئ "رُومْأَلِي حِصَارِي *(Rumeli Hisarı)*"؛ فأنّى لك بفرصة كي تعبر مستريحًا جسر البوسفور هكذا؟

رحل الرجل المنتشي، وحلّ محلّه رجل محطم مصدوم، كأنّ البسمة على شفتيه والبهجة في وجهه والفرحة في صوته علقت بجناح النورس في الخليج؛ بدأ صوته يرتجف، ثمّ أشار إلى مكان بيد مرتعدة، كأنّه مصاب بالبرداء قائلًا:

- رأيت هنا يا محمّد، هنا، في هذا الفناء -كان يشير إلى مكان في مجسّم المسجد الأقصى، وكرّر جملته بصوت حزين، وعينين نديّتين بالدموع- رأيت هنا!

التفت محمّد إلى جدّه وإلى المجسّم بغرابة دون أن يجد تفسيرًا لدموع يحاول جدّه إخفاءها، كأنّها عيب، كان جدّه يبكي، وكانت دموعه تسيل، كأنّها ينبوع ينبثق من بين الصخور منحدرًا بهدوء على لحيته ناصعة البياض، استغرقه حتى الأعماق ذلك المكان المشار له في المجسّم دون أن يفكّر في إخراج منديله، ولم ينتبه إلى نحيبه، لم يستطع أن ينطق ببنت شفة، أمسك بشدّة عكّازه، ونظر إلى المجسّم؛ فسأل محمّد ببراءة الأطفال:

- ماذا حدث يا جدي؟

لم يسمع جدّه؛ إذ غرق في عالَم مختلف تمامًا، انتظر محمّد قليلًا، ثمّ هزّ جدّه من ذراعه قائلًا:

- هل أنت بخير؟ ما بك؟ ماذا حدث لك فجأة؟

كرّر أسئلته وهو يمدّ المنديل الورقيّ، حاول العجوز أن يستجمع قواه، وتنهّد ناظرًا إلى المجسّم بعينين دامعتين، ثمّ عاد إلى حفيده، وحاول أن يبتسم رغم الدموع في عينيه، تعذّر عليه ذلك، تنهّد من الأعماق، إنّها تنهيدة، مثل الريح الشماليّة المنحدرة من جبال "طُورُوسْ *(Toros)* " إلى "جُوكُورْ أُووَا *(Çukurova)*"، ثمّ قال:

- أعادني هذا المجسّم -يا بنيّ- إلى ما قبل اثنين وثلاثين عامًا.

- ماذا حدث يا جديّ؟ لا أفهم شيئًا.

كان العجوز يتمتم، ويمسح دموعه بمنديله:

- يا الله! كيف انقضت تلك السنون ومرّت، فالذين لم يكونوا أهلًا

لأن يكـون المسـجد الأقصى بأيديهم من قبـل، لا يملكون هذه الأيّام سوى مواساة أنفسهم بهذا المجسّم.

ولطالما حاول محمّد أن يفهم ما يحكيه جدّه، ولمَ بقي برهة منكمشًا؟ ولماذا غاص في أعماق الماضي؟ ولماذا حزن؟ ولمَ انهمرت عيناه بالبكاء؟

- ماذا حدث يا جدي؟ فما زلتَ غامضًا!

- اجلس ههنا يا ولدي؛ لأقصّ عليك.

جلسا أمام مجسّم المسجد الأقصى، وشرع الجد في الحديث:

- قبـل اثنيـن وثلاثيـن عامًـا، فـي عـام ١٩٧٢م، كنـت صِحافيًـا في ريعان الشباب، وكان أبوك وقتئذٍ في مثل عمرك...

- حسنًا، يا جدّي، وماذا حدث في ذلك العام؟

- في تلك السـنة كان بعض السياسيّين ورجال الأعمال الأتراك قد قاموا بزيارة رسـميّة لإسـرائيل، وكانت مهمّتنا مراقبة الأحوال بوصفنا صحافيّين؛ تركت أباك وعمّك وجدّتك عند أبي، حتى إنّه -رحمه الله- كان يقول: "هذا الولد لن يجد عملًا مناسبًا، مثل سائر الرجال، وسوف يُلحق العار والخزي بنفسه وبعياله"، وكانت زيارة إسرائيل ستستغرق أربعة أيّام، وصلنا مسـاء يوم حارّ من شـهر أيّار/مايو، جرت اتصالات رسـميّة أوّلًا مـع الجانب الفلسـطينيّ، ثـمّ مع الجانب الإسـرائيليّ، وستدرك أنّها كانت زيارة عاديّة.

- حسنًا، وماذا بعد ذلك؟

- في اليوم الرابع نظّموا لنا جولة إلى الأماكن التاريخيّة السياحيّة في إسرائيل، كنت متلهّفا لزيارة المسجد الأقصى والقدس، كان الجوّ حارًّا، وكان جسـمي يتصبّب عرقًا، وصلنا ضمن قافلة إلى المسـجد الأقصى، كنـت متأثّرًا جـدًّا، وعندما صوّبـت المصوّرة في يـدي لألتقط الصور،

شعرت بيديّ ترتجفان، صعدنا من هذه السلالم، هذا الفناء العلويّ يسمّونه فناء الاثني عشر ألف مشمعة؛ لأنّ السلطان سليم الأوّل عندما فتح القدس، أشعل في هذا الفناء اثني عشر ألف شمعة، وصلّى الجيش العثمانيّ صلاة العشاء في ضوء تلك الشموع، ومن هنا جاء اسمه.

- كان أستاذنا يقول لنا: "إن العثمانيّين فتحوا بيت المقدس عام ١٥١٦م.

- أحسنت يا بنيّ، هذا صحيح.

- وماذا حدث في المسجد الأقصى يا جدّي؟

واصل الجدّ حديثه بأسًى، ونظر إلى المجسّم، وقال بصوت متهدّج:

- لفت نظري رجل في زاوية من زوايا الفناء، رجل في التسعينيّات من عمره، متقلنس، وعليه بِزّة عسكريّة عتيقة أقدم من سنه، والرُّقَع في جوانبها كلّها، حتى إنّ بعضها أعيد ترقيعه، وكان ينتظر هناك واقفًا، وعلى الرغم من هرمه وقامته القريبة من المترين، كانت وِقفته شامخة أبيّة؛ عرتني دهشة.

- حسنًا، من هو يا جدّي؟

- أنا أيضًا تشوّقت لذلك؛ قلت في قرارة نفسي: "يا ترى، لماذا يقف هذا الرجل منتصبًا تحت الشمس في هذا الحرّ الشديد؟ ثمّ سألت المرشد الإسرائيليّ المنظّم للرحلة عن هويّة هذا الرجل؛ فقال: " منذ زمن طويل وأنا أراه منتظرًا هنا حتى المساء يوميًّا، لا يستمع إلى أحد، ولا يتكلّم مع أحد، ينتظر فقط، غالبًا هو أحد المجانين"، كان يقول: "إنّه مجنون"، أمّا أنا فقد ازدادت لهفتي لمعرفته ولمَ يقف تحت الحرّ الشديد هنا؟! اقتربت منه بفضول الصحفيّ، كان ذا لحية ناصعة البياض،

وعلى رأسه قلنسوة قديمة، ويرتدي لباسًا شاحب اللون، مرقّعًا في أجزائه كلّها، غير أنّه كان نظيفًا جدًّا، وكان لباسه يشبه الملابس العسكريّة القديمة.

- ثمّ ...

- كنت متردّدًا؛ هل أتحدث معه؟ ثمّ اقتربت منه جدًّا؛ فلاحظ ذلك، لكنّه لم يتحرك، قلت:

• السلام عليكم يا عمّاه.

أدار وجهه إليّ قليلًا، توقّف، وقال بصوت متهدّج:

- وعليكم السلام "*(Oğul)*" (أيْ يا بنيّ).

قلت فجأة:

- يا إلهي!

ارتعدت من داخلي؛ إنّه تركيّ، تركيّ في هذه الأراضي اليتيمة البعيدة عن الأناضول آلاف الكيلومترات، وأضفت:

- ما الأمر يا عمّاه؟ من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

ردّ بصوته المرتجف:

- أنا؟ أنا العريف حسن، قائد مجموعة الرشّاش الحادية عشرة، السرية الثامنة، الكتيبة السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش العثمانيّ.

كانت الرجفة قد اختفت من صوته، غير أنّه أعاد تعريف نفسه مرّة أخرى وبصوت أقوى من ذي قبل، وكأنّه يريد إثبات وجوده ومكانته:

- أنا العريف حسن، قائد مجموعة الرشّاش الحادية عشرة، السرية الثامنة، الكتيبة السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش

العثمانيّ؛ هاجمت وحدتنا الإنجليز من جبهة قناة السويس في الحرب العالميّة، وكان الجيش العثمانيّ العظيم يحارب في جبهات كثيرة، رغم قلّة العَدد، والإمكانات المعدومة، وهُزم الجيش -يا بنيّ- في القناة، واضطرّ للانسحاب، وضاعت الأراضي ميراث الأجداد من أيدينا واحدة تلو الأخرى، ثمّ وصل الإنجليز الكفرة إلى القدس، واحتلّوها، وبقيت وحدتنا في القدس بوصفها فرقة حرس لمؤخّرة الانسحاب.

- حسنًا، وماذا تعني وحدة حرس لمؤخرة الانسحاب؟

- ترك العثمانيّون حرسًا لحماية هذه البلدة المباركة من أعمال السلب والنهب إلى حين احتلال الإنجليز لها؛ كانت الدول قديمًا عندما تحتلّ مدينة ما، لا يعاملون جنود الدولة المهزومة القائمين بالحراسة معاملة الأسرى؛ ولهذا طلب الإنجليز عند احتلالهم القدس من الدولة العثمانيّة أن تُبقي كتيبة صغيرة لئلّا يثور الناس، وهذه القوّات الباقية في مؤخّرة الجيش تسمّى: "قوّات حرس الانسحاب".

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أكمل كلامه:

- كنّا ثلاثة وخمسين رجلًا في القدس بوصفنا حرسًا لمؤخّرة الانسحاب، ثمّ أُمر بتسريح الجيش العثمانيّ بمقتضى معاهدة "مُونْدْرُوسْ" لوقف إطلاق النار، وكان قائدنا ضابطًا برتبة نقيب؛ أخذنا جانبًا، وقال لنا: "أيّها الأسود، إنّ الدولة العثمانيّة في مأزق كبير، يسرّحون جيشنا العظيم، وقد استدعوني إلى إسطنبول، ولزام عليّ أن ألبّي، وإن لم أذهب أكن مخالفًا شروط الهدنة، عاصيًا الأوامر، ومن أراد منكم العودة إلى بلده فليفعل، ولكن لو تطيعوني، فلي عندكم رجاء؛ القدس أمانة مولانا السلطان سليم في أعناقنا؛ فواظبوا على الحراسة هنا، كي لا يقول الناس: "إنّ العثمانيّين تخلّوا عنّا،

وتركونـا"؛ فـإن تخلّـت الدولـة العليّة عن القـدس الذي هـو أوّل قبلة لمفخـرة الإنسـانيّة سـيّدنا محمّـد ﷺ، فسـيكون ذلـك عِيـدًا وانتصارًا حقيقيًـا لأعدائنـا؛ فـلا تضعـوا عزة الإسـلام وكرامـة الدولـة العثمانيّة تحـت الأقـدام"؛ فبقيـت وحدتنـا كلّها في القـدس؛ لِئَلّا يقـول الناس: "تخلّـت الدولـة العثمانيّـة عنّـا"، ولكيلا يبكـي المسـجد الأقصى بعد أربعة قرون، ولكيلا يألم سـيّد الأنبياء ﷺ، ولا يغرق العالم الإسـلاميّ في الحزن، ثمّ تعاقبت الأيّام والسنون، الأعوام طويلة غير أنّها تمضي، كلمـح البصـر، رحل الأصدقاء في الوحدة واحدًا تلو الآخر إلى رحمة الله، لـم يسـتطع الأعداء القضاء علـى وحدتنا العسـكريّة، وإنّما قضى عليهـا الزمـان، وبقيـت وحدي هنا، وهـا أنا ذا لا زلت العريف حسـن في القدس الشريف.

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أُنصتُ إلى العريف حسـن، أمّا هو فكان العـرق المتصبّب من جبهته يختلـط بدموعه المتلألئة في وجهه المتغضّن، وأخذ في حديثه:

- لـي عنـدك رجاء يا بنـيّ، احتفظت بهـذه الأمانة منذ سـنين؛ فهل توصّلها إلى أهلها؟

قلت:

- بكلّ تأكيد!

سأل:

- ألن تعود إلى الأناضول يا بنيّ؟

أجبت:

- بلى.

وكأنّه كان ينتظر تركيًا؛ ليرسل خبرًا إلى تركيا!

- إذا كان الأمـر كذلـك، فأرجو منك -عندما تعود إلى الأناضول- أن تذهب إلى محافظة تُوكَاتْ؛ فهناك ضابطي النقيب مصطفى؛ كلّفني بحراسـة المسـجد الأقصى، ووضعـه أمانة في عنقي؛ فقبّـل يديه نيابة عنّي، وقل له: "سيّدي الضابط، العريف حسن الإِغْدِزْلِي قائد مجموعة الرشّاش الحادية عشرة الحارس في المسجد الأقصى مازال قائمًا على حراسـته حيـث تركته منذ ذلك اليوم، ولـم يتـرك نوبته قطّ، وإنّه ليرجو دعواتكم المباركة!".

فقلت:

- سمعًا، وطاعة يا عمّاه.

كنـت أحـاول أن أخفـي دموعي تـارة، وأكتب مـا يقول تـارة أخرى، ثمّ سألني عن مدينتي، فقلت:

- من إسطنبول

فأشرق وجهه بابتسامة وقال:

- إذًا قدمت من عاصمة الخلافة؟ كيف حال العثمانيّين؟

سـكتّ؛ فلم أتحدث ولـم أسـتطـع أن أتحدّث، لا يليق لي أن أتحدث عـن انهيـار الدولة العثمانيّة العظيمة، وأنّ ما تبقّى في أيدينا منها لا يتعدّى أربـع بالمائة من مساحتها القديمة، بل إنهم ليستكثرون هذا علينا، وأرادوا أن يسلبوها منا كليًا، ولا أن أتحدَّث عمّا فعله الإنجليز، والأرمن، والروم فـي الأناضـول، ولا عن حروبنـا وتضحياتنا المسـتمرّة، فكيـف أقول له: إنّنـا لـم نصمـد مثلكـم أمـام أعدائنا، لم نزلـزل العالـم بصمودنـا، وبقينا في مكاننا، لم نتقدّم قيد أنملة؟ لم أسـتطـع أن أقول له: من كانوا بالأمس تلاميذنـا يتلّقون الأخلاق والفضيلة والعلوم عنّا، أصبحوا اليوم شـيوخنا، ولـم أستطـع أن أقول له إلّا: إنّ دولتنا بخير!

سألني:

- إذا كانت دولتنا بخير؛ فلمَ لا تأتي، وتخلّص القدس من هؤلاء؟

فعييت؛ ولم أجد جوابًا؛ لم أقل له: الدولة العثمانيّة لا تُذكر إلّا في كتب التاريخ فقط، ولم يرضَ قلبي أن يؤلم قلبه؛ ضننت بالكلام، قلت فقط:

- سيأتون يومًا ما!

أقبلت على يديه الخشنتين، وقبّلتهما بحرارة، ثمّ قلت له:

- أترككم في رعاية الله يا عمّ حسن! فقال:

- حفظك الله يا بنيّ! بلّغ الأناضول مني السلام؛ فمن العسير علينا أن نرى هذه البقاع المباركة بالعين المجرّدة؛ بلّغ سلامي من أعرف ومن لا أعرف؛ بلّغ الدولة العليّة مني السلام.

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدّي؟

- عدت أدراجي إلى القافلة، وكنت في غاية التعجّب والدهشة؛ فكأنّ تاريخ أجدادنا المجيد عاد حيًّا، وانتصب واقفًا أمامي، كانت الفرص الضائعة، والأعمال الناقصة، وعدم المبالاة تنزل على رأسي كالصاعقة، ما زال جنديّ من جنود الدولة الغالية يرابط حارسًا في القدس، وما زال -في تلك السنّ- منتصبًا هناك بوقار الدولة العثمانيّة ومهابتها، شرحت للمرشد هناك أمر العريف حسن؛ فلم يستطع أن يصدّق، وأعطيته عنواني، وطلبت منه أن يخبرني بأيّ شيء يحدث لهذا الجنديّ.

- وماذا حدث بعد أن عُدت إلى تركيا؟

- كان عليّ أن أبلّغ رسالته؛ ذهبت إلى مدينة تُوكَاتْ، وبعد جهد جهيد وجدت في السجّلات العسكريّة ملفّ النقيب مصطفى.

- هل قابلته شخصيًّا؟

- لا؛ إذ أدركته المنيّة منذ سنوات، وستفهم تعذّر وفائي بعهدي، ثمّ تعاقبت الأيّام، وفي عام ١٩٨٢م أثناء عملي في وكالة الأنباء، أخبرني الأصدقاء ببرقيّة وردت من إسرائيل؛ قلت في نفسي: "يا إلهي! ما شأني بإسرائيل؟"، نظرت إلى البرقيّة؛ إنّها من المرشد الإسرائيليّ؛ احتوت على جملة واحدة: "مات اليوم آخر جنديّ عثمانيّ يحرس المسجد الأقصى!".





موكب "الصرة" في بلاد الشام

الهجوم على الصُّرَّة

عندما فُتِح الباب السلطانيّ لقصر "طُوبْ قَابِي"، تراءى من بعيد حامل البشرى حسن باشا -والأذان يُرفَع من مسجد آيا صوفيا- ممتطيًا جواده، تَعِبًا، مضنًى، يُرثَى لحاله، وكان من غير المعتاد أن يعود إلى إسطنبول قبل أن ينتهي موسم الحجّ؛ إذ كان مبشّرًا، وظيفته الذهاب من إسطنبول إلى مكّة والمدينة بصحبة قافلة الحجيج، ليبشّر السلطان بوصول الهدايا المرسلة من الدولة إلى مبتغاها، وتعود قافلة الحجّ بالصُّرَّة بعد سبعة أشهر من خروجها من إسطنبول في الثاني عشر من شهر رجب؛ فلم يكن ظهور المبشّر عند باب القصر في منتصف شهر شوّال مبشّرًا بالخير.

دخل حسن باشا من الباب السلطانيّ، ومرّ تحت أشجار الدُّلْب تحيط بهِ روائح الخبز المنبعثة من الفرن الخاصّ في الفِناء الأوّل، ووصل إلى باب السلام، وترجّل عن جواده أمام الباب ذي البرجين؛ أخبر الحرس رئيسهم بقدومه، وتسلّموا جواده -كان السلطان وحدَه مَن يستطيع الدخول بجواده من هذا الباب-؛ أخذ رئيسُ الحرس المبشّرَ حسن باشا إلى مضيفة الرُّسُل والسفراء تحت برج في الجانب الأيمن، وتسامر الصديقان حسن باشا ورئيس الحرس، فقد كانا يعملان معًا في القصر منذ سنين، وأحضر الأخير من المطبخ العامر بالصواني المقصدرة الخبز الصابح والحَساء، إذ كان حسن باشا جائعًا، غير أنّه كان مكدّر المِزاج حتى إنّ نفسه عافت الطعام تمامًا، وقال:

- يجب أن أتحدّث الآن قبل أيّ شيء مع سيدّي السلطان، أخبروا السلطان بالأمر.

ثمّ ورد الخبر بأنّ السلطان ينتظر حسن باشا في قاعة الاستقبال، دخل حسن باشا القاعة مارًّا من باب السعادة، وعندما دخل، فُتحت أحواض السابلة أمامه في القاعة وخارجها، وإذا كانت المياه المنسكبة من الصنابير النُّحاسيّة على الحوض المرمريّ تمنع استماع مَن خارج القاعة إلى مَن فيها، فإنّ الدموع المنهمرة من عيني حسن باشا غمرت بالحزن السلطان محمدًا الرابع.

كان السلطان جالسًا على العرش، وحسن باشا يتحدّث مطرقًا:

- هلكنا، يا مولانا!

حاول أن يمسك بزمام نفسه -إذ جشّمه الحديث جُهدًا بالغًا- قائلًا:

- سيّدي السلطان، إنّ الصُّرّة السلطانيّة وقافلة الحجيج المتّجهتين تِلقاء أرض الحجاز بتوديع مبارك منكم سارتا شهرًا ونصفًا، وعندما أخذنا قسطًا من الراحة على مشارف نُزُل "كُولَه *(Gula)*"، هاجمَنا خمسون ألفًا من قُطّاع الطريق.

قال السلطان:

- ثمّ؟

- لجأنا إلى النُّزُل عشرة أيّام محاولين الحفاظ على قافلتنا.

- ألم تكن معكم حماية؟

- بلى، كان معنا يا سيّدي، لكن ماذا عسانا نرتجي من فئة صغيرة إزاء أعداد غفيرة من قُطّاع الطريق؛ استُشهد منّا عدد في بداية الهجوم، وعندما حاول الحجيج الذبّ عن أنفسهم، سقط جمع غفير منهم شهداء.

دَهِش السلطان محمد الرابع ممّا يُقصّ عليه؛ فلم يتحمّل ما سمعه من سلب الأموال المرسلة ابتغاء وجه الله إلى بلدة الحبيب ﷺ، ومن إرهاب حجيج ذهبوا للتعبّد في الأراضي المقدّسة رغبة فيما عند الله؛

فتباكى السلطان وضيفه، واستمرّ متسائلًا:

- وماذا حدث للباقين؟

- أُسِرت طائفة من أطفال الحجّاج ونسائهم، وقضى الآخرون نحبهم صبرًا، واستطاع عدد منهم -نحو مئة وستّين- أن يصلوا إلى الشام شتّى.

خيّم جوّ من الأسى على القصر، ولم يستطع أحد أن يفسّر ما حدث، وعمّ الحزن أرجاء إسطنبول؛ إذ خيّم على المدينة ألم الأمّهات، والآباء، والأزواج، والأطفال المنقطعين في طريق الحجّ، بينما كانت إسطنبول تحترق ألمًا وشوقًا إلى من استُشهدوا في طريقهم للحجّ.

خُتِم القرآن الكريم على أرواح الشهداء في مساجد السلاطين أيّوب، وأحمد، والفاتح، وغيرها، وصلّيت صلاة الغائب عليهم، وكلّما تذكّر السلطان هذه الحادثة، اغرورقت عيناه بالدموع؛ وقد عبّر الشاعر عاشق "نَشْعَتِي" بهذه الأبيات عن هذه الحادثة قائلًا:

قصدنا بيت الله

لتستلم الوجوه الحجر

ونقف على عرفات

فقالوا: لا عاصِمَ إذا حلّ القدر

* * *

قصدنا طريق الحقّ من "أُوسْكُودَارْ"

ولا علم لنا بالمقدور

امتزجت دموع عيوننا بالنيل

وقالوا: هلكت آلاف الأرواح

* * *

جاء قُطّاع الطُّرُق، وعرقلوا سبيلنا
وأحرقوا بالأسى أفئدتنا
بكى البشر في الأرض، والملائكة في السماء
قالوا: وا أسفاه على حجيجنا!

* * *

فزحفنا جرحى، قرحَى في المفاوز
لا دليل لنا؛ فيرشدنا
تكفينا رحمة الجليل
وقالوا: هذا قضاء مكتوب على الجبين

* * *

سمع السلطان محمد، وبكى
كوى بكاؤه قلوب العبيد
ذكر هذا سبعة ملوك بألسنتهم
قالوا: وا أسفاه على حجيجنا

* * *

بعضهم ذهب إلى القدس، وبعضهم إلى الشام
بعضنا إلى بيروت وبعضنا إلى مَعَانْ
فما أكثر من تضرّجوا بالدماء!
قالوا: صاروا شهداء في كربلاء

* * *

تصاعدت الصّيحات والآهات إلى السماوات
صار حالنا طامّة كبرى
ذهبت هيبتنا وشأننا أدراج الرياح

وقالوا: يا ربِّ، منك الغوث والمدد

لم يكن هذا الأمر في دورة الفلك

عبثت أيادٍ كثيرة في المحمل الشريف

وأُريقت دماؤنا في الصحراء على الرمال

وقالوا: هي من علامات آخر الزمان

* * *

لعب السيف والرمح فوق رؤوسنا

ولم يصلنا مدد أهل الشام

لا حول ولا قوّة لآل عثمان

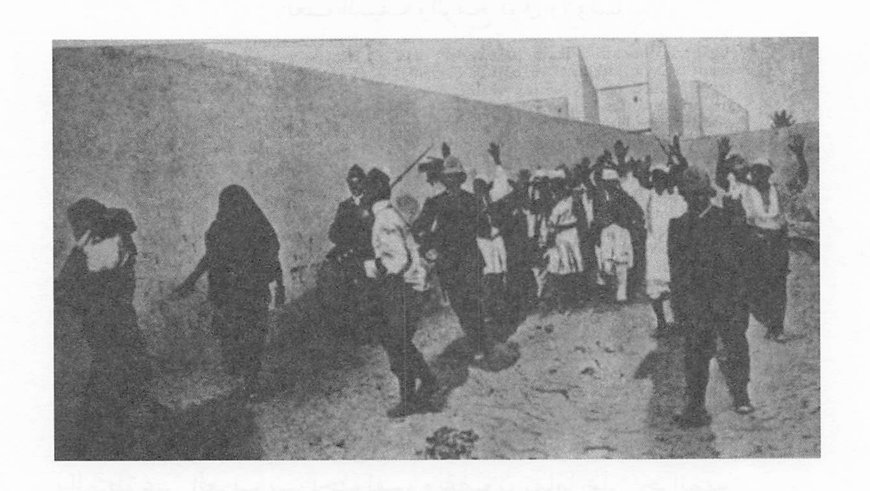
قالوا: يا ربِّ، منك الغوث وأنت المستعان

حزن المسلمون كثيرًا في مكّة، والمدينة، والشام، والحجاز العربيّ جرّاء ما حدث، وفي العام التالي انضمّ المتطوّعون العرب إلى القوّات المسلّحة الذاهبة برفقة الحجيج؛ فإذا هاجم قُطّاع الطُّرق مرّة أخرى البُعران المحمّلة بالأمتعة، وقوافل الحجيج، وفوج الصُّرّة المتقدّم برفقة حُماته الذين تضاعف عددهم إلى خمسة أضعاف، فإنّ الجنود العثمانيّين والمتطوّعين العرب سيواجهونهم، ويقضون تمامًا على جرائمهم.

كان العثمانيّون يرسلون الهدايا إلى الأراضي المقدّسة مع الصُّرة كي يدفعوها إلى البدو قُطّاع الطريق؛ لأنّهم يدركون أنّ الجائع من الممكن أن يقوم بأيّة جريمة بسبب الجوع والمخمصة، وأنّ الحضارة السامية لا تعني فقط القضاء المبرم على الأعداء، وإنّما تعني سدّ الطريق أمام العداوة والشنآن.







الاحتلال الإيطالي في "طرابلس الغرب"

منزلة الأجيال الثلاثة: الشهادة

- استعدّ؛ أطلق النار!

كان دويّ ستّ بندقيّات في نفس الوقت يُسمع الصُّمّ، ثمّ انتشرت في الأنحاء رائحة بارود كثيفة تزكم الأنوف، رائحة عجز المظلوم في مواجهة الظالم، دنّست تلك الرائحة هذه المرّة بالدماء أراضي ليبيا سريعًا؛ فكانت رائحة الدم تعقب رائحة البرود في هذه الجِغرافيّة.

انتهت حرب طرابلس الغرب، وسيطرت إيطاليا على ليبيا مستفيدة من اضطراب الأحوال في البلقان، وقاوم الشعب العثمانيّ الإيطاليّين بقدر استطاعته، وماذا عساهم يفعلون؟ فاضطرابات أظهرتها شعوب تسابقت في إهانة الدولة العليّة في البلقان أجبرت العثمانيّين على تسليم ليبيا للإيطاليّين، وكان الإيطاليّون يحاكمون الأسرى في ديوان حرب أسّسوه، وكان الحُكم الوحيد المحكوم به في هذه المحكمة -أيًّا كانت الأسباب- هو الإعدام، فما المحكمة إلّا قاعة انتظار يمرّون بها قبل الإعدام رميًا بالرصاص، وحُمادى القول أنّها لم تكن محكمة مُحايدة، ولم يكن متاحًا فيها حقّ الدفاع والمُحاجّة عن النفس.

استمرّت المحكمة دون غضاضة مثقال ذرّة من قرارات أصدرها العميد قورله طُورَلّي *(Corlo Torelli)*، ثمّ رغب في استراحة قصيرة، وأثناءها خاطب العقيد بجواره:

- أيّها القائد، لماذا نُتعب أنفسنا بأمر هذه المحكمة، فلنقتل الأسرى جميعًا ليلًا، ولينتهِ هذا الأمر بأيّ حال.

- وأنـا أيضًـا -أيّهـا العقيد- كنت أفكّر في الفكرة نفسـها، غير أنّي أتوقّـع ردود أفعال كثيرة لمقتل العشـرات من الأسـرى دفعة واحدة، ناهيك عن أنّ طائفة ممّن لا يتورّعون في أوربّة سـيطلقون الشـائعات على إيطاليا!

- لا أفهم رأيكم يا سيدي، ولكنّي سئمت جدًّا من هذه المحكمة.

- صديقـي اصبِر، فستنشـرح صدورنا عندما نحكي في المسـتقبل أمـر هذه المحكمـة، وعندما نرجـع إلى إيطاليا، سـنحكي كيف قضى الإيطاليّون بالعدل في هذه المحاكمات (!)؛ فاصبر قليلًا الآن!

- حسنًا، سيّدي.

- تمام، فلنستمرّ، أحضروا المتّهمين الآخرين.

أُحضر أمام هيئة المحكمة ثلاثة أشخاص مرتدين ملابس عربيّة، تبدو عليهم وعثاء السفر.

قال العميد طُورَلّي:

- العرب القذرون، انظروا إلى حالهم، يتمرّدون على الإمبراطوريّة الإيطاليّة.

كان أحد المتّهمين هرمًا ذا لحية ناصعة البياض تتلألأ في وجهه الأسمر حريق الشـمس، وآخر في الثلاثين من عمره، تنمّ شـفاههم المتشـقّقة مثل قـاع البحيرة اليابسـة أنّهم جوعى عطشـى منذ أيّام، أمّـا ثالثهم فكان طفلًا بريئًا.

كانوا حفاة، غُلّت أياديهم من الأمام، وكانت الأصفاد مشـدودة حتى إنّ أصابعهـم قد احتقنت، ورخوة حتى إنّها تسـمح لهـم بالخروج من الحياة؛ كان مثولهـم أمـام العميد كافيًا للحكـم عليهم بالإعـدام دون اتّهام ودفاع، فما حديث الضبّاط الإيطاليّين مـع هؤلاء الفقراء سـوى إهدار للوقت، كان

العميد لا يريد أن يورّم رأسه بالسماع لهؤلاء، وعندما أوشك أن يأمر بتنفيذ إعدام المتّهمين، ظهر أوربّيان حسنا الهيئة عند باب المحكمة، وفي أيديهما دفاتر لتدوين الملاحظات، وفي عنقيهما مصوّرات، قالا للعميد:

- نحن صِحافيّان، نستأذنكم في التحري عن عمل هذه المحكمة.

حار العميد أمام هذا الطلب المباغت، وفكّر في مشكلات جمّة ستنجم عن عدم إطلاع الصحافيّين على سير المحاكمة؛ فقال:

- لا ريب أنّ الناس جميعًا يشهدون أنّ محكمتنا عادلة في قراراتها، وبإمكانكم أن تتابعوا بأنفسكم أيّها الأصدقاء، نحن نحاكم هؤلاء المتمرّدين لهجومهم على جنود إيطاليا البواسل، تفضّلا، اجلسا.

قدوم الصِحافيّين الأوربيّين سوف يصعّب عليه الأمر، وليس ثمّة شيء يستطيع أن يفعله، وكان من الضروريّ أن يضفي زينة القضاء العادل على المحكمة؛ سعل العميد، وتنبّه لشيء لم يشعر بالحاجة إليه من قبل عند محاكمة العرب؛ فصاح:

- استدعِ المترجم حالًا أيّها المقدّم.

- طوع أمرك يا سيّدي.

ثمّ جاء المترجم، وترجم إلى العربية سؤالًا سأله العميد للمتّهمين الثلاثة:

- من أنتم؟

تقدّم رجل من المتّهمين في أوسط عمره، وتدفّقت من شفتيه -المتشقّقتين عطشًا- كلمات باللغة الإيطاليّة:

- أيّها الرئيس، أنا عميد عثمانيّ أعمل في خدمة سلطاننا صاحب الجلالة، اسمي أحمد علاء الدين، ووالدي محمد باشا قائد لواء متقاعد، أمّا هذا الغلام، فهو ابني محمد عبد الله، وقد حظي بوظيفة في جيشنا بصفته جنديًّا متطوّعًا.

ظـلّ الحضـور في ديوان الحرب بيـن الحيرة والتعجّـب، كيف تمكّن هـؤلاء الشُّـعْث الغُبْر أن يعرفوا اللغـة الإيطاليّة، وكيف يمكنهم أن يكونوا جنـودًا وضبّاطًـا، وضبّاطًـا أتـراكًا؟ هـذا مسـتحيل، وإذا كان ثمّـة وصف يسـتحقّونه، فمـن الممكـن أن يكونوا مُسْـتَجْدِين متسـكّعين، بـدأ العميد طُورَلّي يضحك مقهقهًا، وقال:

- الشـحّاذون يعرفـون اللغـة الإيطاليـة، أنـت تزعـم أنّـك ضابط، ووالدك ضابط متقاعد وابنك جنديّ متطوّع!

لـولا الصِّحافيّـان، لأرسـلهم فورًا إلى قـاع الجدار، ونفّـذ فيهم حكم عدالتـه! لكـنّ الصِّحافيّيـن أفسـدا كلّ شـيء، وكان لِزامًا عليه أن يسـتمرّ في المحاكمة؛ فأضاف:

- كيف تثبتون ما تزعمون، هل لديكم من وثائق؛ فتظهروها لنا؟

أخـرج أحمد علاء الدين بَـك بيديه الموثقتين -بصعوبـة بالغة- ورقة من جيبه خُطّت عليها عبارات عثمانيّة، وقدّمها إلى هيئة المحكمة قائلًا:

- هذا قرار تعييني.

حـدّق العميـد في الورقة بضـع دقائق رغم عجزه عن تفسـير ما فيها؛ إنّه أمر تعيين صادر من قائد الجيش العثمانيّ؛ قال أحمد علاء الدين:

- أعطوا الورقة لمترجمكم، يقرؤها عليكم.

أزعجـت الترجمـة طُورَلّـي؛ عُيّـن أحمد عـلاء الدين -بأمـر من قيادة الجيش العثمانيّ- قائدًا على اللواء الثاني للمتطوّعين العرب في طرابلس الغرب؛ فقال:

- حسـنًا، لمـاذا ملابسـكم مدنيّـة؟ فقـد ارتديتـم ملابـس شـبيهة بملابس العرب!

- فرقتي ليست نظاميّة؛ إذ تشكّلت من المتطوّعين، وكان من العيب أن أقودهم مرتديًا بِزّة العميد العثمانيّ؛ فارتديت مثلما يرتدون.

كان صوته يشبه الوقفة الشامخة للضابط العثمانيّ؛ فليس ثمّة رِعدة ولو ضئيلة في صوته ولا في وقفته، كانت وقفة شامخة لدولة عالميّة وإن كانت على حافة الموت؛ خيّم الصمت على الغرفة بعد كلامه الأخير، وكان صخب الصمت يخنق العميد؛ اقشعرّ لعدم سماع صوت سوى صرير الأقلام للصِحافيّين؛ طوى قرار التعيين، ونحّاه جانبًا قائلًا:

- حسنًا، أوافق على أنّك ضابط عثمانيّ، لكن لا تنسَ أنّ هذا لا يعني أنّ خيانتك إيطاليا ستبقى بلا عقاب؛ فقد نظّمتم هجمات غادرة خلف وحداتنا؛ فماذا عساك أن تقول عن هذا؟

- انظر أيها الرئيس، نحن -العثمانيّين- لا نخون، ونرى أنّ الخائن هو المحتلّ أراضيَ بقيت في حدودنا قُرابة أربعة قرون، مثل طرابلس الغرب منتهزًا فرصة حال سيّئة هوت فيها الدولة العليّة.

- أجب عن سبب هجماتكم الغادرة على جيوشنا.

- نحن لم نهاجم جيوشكم غِيلة، بل نهاجم لاسترداد أراضينا، هاجمنا جيشكم بجنود لا تبلغ نصف عددكم.

- لستم أقلّ منّا.

- أيها الرئيس، أتى الإيطاليّون بخمسين ألف جنديّ، بينما كانت قوّاتنا وحدة عثمانيّة من ثلاثة آلاف والعرب المحليّين خمسة عشر ألفًا، وجنودنا ليسوا مسلّحين بالعتاد الكافي؛ هاجمناكم بأربع مئة بندقيّة!

- وأين هذه البندقيّات الآن؟

- لا تقلقوا؛ استُشهد جنودنا أو وقعوا أسرى عند الانسحاب لكيلا تحصلوا على أسلحتهم، وأقسم لكم أنّ هذه البندقيّات ستصوّب مجدّدًا عليكم في غضون فترة وجيزة، ولن تخمد حتى تطردكم من هذه الأراضي.

تضايق العميد طُورَلِّي مّما رأى وسمع، ولو أنّ جنديًا واحدًا من جنوده لديه نور الأمل مثل هؤلاء الرجال، لكانت طرابلس الغرب وإفريقية قاطبة تابعة لإيطاليا، وكم كان هذا الضابطُ عديمُ الحول والقوّة أكثر ثقة وطمأنينة منه! وكان يتحدّث بارتياح بالغ غير مكترث بدنوّ أجله.

أحسّ محمد باشا غير مرّة بمتاعب السنين، وربّما إذا أُطلق سراحه، فسيبقى في مكانه، لكن يجب عليه أن يتجلّد؛ إذ تفضّل التربية العثمانيّة الموت بعزّة نفس على الحياة مع تجرّع الذلّ؛ ابتهل إلى الله بالدعاء: "ربِّ، هبني من لدنك قوّة، ولا تكتب عليّ الذلّة لهؤلاء الكفّار؛ فقد جئنا هنا لحماية وطننا، أتينا لئلّا ينقطع الأذان، ولا يخرج المؤمنون بك من أوطانهم، ربِّ أسألك أن تُقرّ هذه العيون بالنصر، وإن لم يكن لنا نصيب في رؤية النصر، فأسألك الشهادة في سبيلك!"

- قلتم: جنودكم قليل، وقد قدّمتم جنودًا لحماية أسلحتكم!

- فقدنا في الهجوم خمسة عشر شهيدًا، وقتلت محكمتكم حتى الآن خمسة وثلاثين.

اختلس رئيس المحكمة النظر إلى الصِحافيّين، وعندما لاحظ أنّهما يكتبان كلّ ما يُقال، اغتاظ فجأة صائحًا بصوت عالٍ:

- لا سبيل لكم لاحتقار ديوان الحرب؛ قد حُكم على هؤلاء اللصوص، وسيُعدمون بناءً على قرار المحكمة.

قبض أحمد علاء -وهو يقف منذ دقائق في سكينة- يديه الموثقتين بشدّة، وامتقع وجهه، وقطّب حاجبيه، وظهر الغضب على وجهه المغبرّ، وسار نحو هيئة المحكمة، فأمسكه جنود الحراسة من ذراعيه، ويكأنّ جنديًا مكبّلًا يمكنه أن يُلْحِقَ الأذى بمن في المحكمة؛ صاح الضابط العثمانيّ:

- لا تنعت شهدائي باللصوص!

لم يكن قورله طُورَلِي يتوقّع أبدًا ردّ فعل كهذا؛ فارتبك فجأة متلفّتًا، وحاول في لجّة الحيرة -كَسَمَكٍ خرج من الماء- العثورَ على مخرج من هذا المأزق، فقد حطّم جنديّ موثق اليدين مشدود الذراعين مرصودًا من الحرس معنويّاتِ هيئة المحكمة جميعًا، وخشي طورلي على سُلطته في المحكمة؛ وكان من الواجب عنده أن يُلقّن من تجاوز حدوده درسًا قاسيًا؛ فصاح:

- أيّها الضابط، لا تدافع في ساحة القضاء عن اللصوص.

- السيّد الرئيس، السفلة -لا ريب- هم مَن يحقرون الموتى.

استمرّ علاء الدين في كلامه دون أن يدع فرصة للإيطاليّين لأن يجيبوا:

- لم يكن جنودنا سواءً أكانوا من العثمانيّين أم من العرب المتطوّعين تابعين لكم قطّ؛ فبأيّ حقّ تحتقرون هؤلاء المجاهدين؟

- لا جدوى من هذا الكلام، ولن تمرّ حيلتكم عليّ فأقتنع بكذبكم؛ فكيف تقولون: "العرب معكم"، وقد جاء رؤساء مئتي قبيلة عربيّة معلنين تبعيّتهم للحكومة الإيطاليّة؟

- نعم، مِئَتَا شحّاذ يهوديّ كانوا تابعين لكم؛ فأنتم من دفع بهؤلاء اليهود واحدًا تلو الآخر إلى رئاسة القبائل، وهم لا يحسنون صنع شيء، ويتعذّر عليكم -أيّها الرئيس- أن تقنعوا أحدًا غيركم بهؤلاء الشحّاذين، وفي الحقيقة نحن أمّة اعتادت على خيانتكم، واتّحادكم مع هؤلاء المخادعين ربّما يفيد قليلًا الأوربيّين، لكنّه غير مفيد ألبتّة لنا نحن -المسلمين-؛ لذا فنحن نكلكم إلى الله!

رفع الصِّحافيّ الفرنسيّ رأسه فجأة، ونظر إلى أحمد علاء الدين بَك، بينما كان الصّحافي الآخر يواصل الكتابة عجِلًا، أرخى العميد أُزْبته قليلًا؛ كان يظنّ أنّ اتّخاذ الأُزْبة -رغم حرارة طرابلس الغرب- أحد مقتضيات

الحضارة الأوربيّة، وأحسّ حينئذٍ أنّ بِزّته قد بلّلها العرق، وكم كان جميلًا -في نظر هذا الضابط- أن يظهر تقدّم أوربّة بلُغده وأرْبته الخانقة، ويظهر تخلّف هؤلاء الرجال بلِحاهم وبملابسهم العربيّة، ولاحظ فجأة أنّهم لم يعرقوا مثله، التفت إلى الصّحافيّين قائلًا:

- كلّ ما قاله كذب وافتراء، أنا أُمثّل الحكومة الإيطاليّة هنا، من فضلكم لا تنخدعوا بما قاله هؤلاء اللصوص!

لم يستطع أن يواري ذعره عن الصِّحافيّين، وكان رئيس المحكمة يتحدّث وكأنه يحاسبه، قال طُورُلّي للجنود العثمانيّين:

- لن تصغي محكمتنا أكثر إلى إهاناتكم، أجيبوا فقط عن أسئلتي؛ لا أريد ثرثرة زائدة، ألم تكونوا بين مهاجمي الجنود الإيطاليّين في السادس والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام ١٩١١م؟

- كنت أنا قائد الهجوم.

- حسنًا، ومن كان معك؟

- شارك أيضًا أبي وابني؛ إذ كان يعملان في وحدتنا.

- هل حرّضتم سكّان طرابلس على الإيطاليّين؟

- أهل طرابلس مواطنون عثمانيّون، والمواطنون العثمانيّون جميعًا يحاربون لحماية وطنهم، وأنا أيضا تطوعت بينهم وحاربت معهم.

نظر محمد عبد الله حوله، ولو لم يكن والده موثق اليدين، لطرح القضاة الثلاثة والجنود العشرة في المحكمة أرضًا بمفرده، فكّر قائلًا: "أبي المسكين، مثل الأسد موثق اليدين والقدمين"، انزعج؛ إذ لا يحبّ أن يرى والده على هذا الحال، وكم كانت البِزّة العسكريّة العثمانيّة خليقة بهذا الرجل! إذ أتى إلى طرابلس الغرب يغمره إعجاب كبير بوالده، فكانت الخدمة تحت قيادته غاية ما يتمنّى، ولو أنّهم استطاعوا أن يطردوا هؤلاء المحتلّين من هذه الأرض، لأحسّ أنّ الدنيا قد حيزت كلّها بين يديه!

كان لا يفهم شيئًا ألبتّة من اللغة الإيطاليّة المتحدَّث بها، لكنّه فهم أنّ القادم لا تُحمد عقباه، وربّما سيحلّ عليهم شتّى أنواع البلاء، غير أنّه كان جنديًّا عثمانيًّا مسلمًا، يجب عليه أن يقف شامخًا وألّا ينحني أبدًا في مواجهة الكافر، كان الحاكم الإيطاليّ يصيح ويتطاير الرذاذ من فمه، وتعرّقت بِزّته، وكان الوالد واقفًا في سكينة يترقّب القضاء المحتوم أمام مِرجل يغلي ويفور، وقد عبّر الحاكم الإيطاليّ عن غضبه بوجهه العبّاس وحاجبيه المقطّبين ووجنتيه المحمّرتين، أمّا الوالد فكان يجيب في سكينة وإيمان بالله.

كانت تعلو وجهه بسمة، وكان يصغي لوالده بإعجاب وإن لم يكن يفهم شيئًا ممّا يقوله مستمتعًا بذلك، ولو استطاع أن يذبّ الذباب عن وجهه، لأسعده ذلك أيّما سعادة، صعب عليه أن يطرد الذباب عن شفتيه وأنفه بيديه الموثقتين الخدرتين المحتقنتين من الوثاق؟ حزن عندما نظر إلى وجه جدّه المصفرّ، وتذكّر صورته الفوتوغرافيّة في حِضن جَدّه، المرتدي لبِزّته العسكريّة، لم يتذكّر وقت التقاطها، غير أنّه كان شديد الفَخار بوقار جَدّه المنتصب هناك بعزيمة عثمانيّة، وكم هو متعب مضنًى الآن! ثم قال في نفسه: "جَدّي الحبيب بادر ليحمي وطننا، دون أن يكترث بكبر سنّه".

استمرّ طُورَلِّي في التحدّث ناثرًا رذاذه:

- فهمت من كلامكم الأخير أنكم توافقون على تحريض الشعب ضدّ الحكومة الإيطاليّة -وهذا جرم عظيم-، فهل ثمّة شيء آخر تريد قوله؟

- كلّا.

- هل يريد أحد غيرك قول شيء؟

نظر أحمد علاء الدين بوجه مبتسم أوّلًا إلى والده ثمّ إلى ابنه.

- أبي، يسأل: هل هناك شيء تريدون قوله أم لا؟

- ماذا عسانا أن نقول؟ أعزّ الله أمّتنا ودولتنا وسلطاننا! النصر لا يأتي بسهولة -يا بنيّ-، وما أسعدنا إن كان النصر حليفنا!

- هل ثمّة شيء تقوله يا محمد؟

- كلّا، يا أبتاه، كان الله في عون دولتنا في كلّ وقت وحين!

عندما كان أحمد علاء الدين ينظر إلى ابنه، علَت وجهه بسمة معبّرة؛ ثم اغرورقت عيناه بالدموع؛ فأدار وجهه سريعًا لكيلا يظهر ذلك لابنه.

- ليس ثمّة شيء آخر نقوله.

كان العميد طُورَلِي منزعجًا في تلك المحكمة من هؤلاء المُتّهمين ومن الذباب أيضًا، وكان يقوم بحركات مسرحيّة بوجهه ويديه رغبة منه في أن يظهر للصِّحافيّينِ مصاعب كابدها بوصفه ضابطًا مدنيًّا في أوربّة، غير أنّهما لم يعبآ بذلك.

عاد العميد طُورَلِي إلى القاضيين الجالسين عن جانبيه وتهامسوا؛ قال كاتب المحكمة بصوت عالٍ:

- قرار المحكمة.

لم يكن طُورَلِي يقف عند التصريح بأيّ قرار، غير أنّ خجله من الصِّحافيّينِ قد جعله ينتصب واقفًا:

- أجرت محكمتنا محاكمة للمتّهمين، وأدركت أنّهم كانوا من عصابات قاتلت الجنود الإيطاليّين؛ وبناء على هذا، فقد رأت المحكمة ألّا تعاملهم معاملة أسرى الحرب؛ فحكمت عليهم بالإعدام.

كان أحمد علاء الدين ومحمد باشا ومحمد عبد الله ينتظرون صامتين في ظلّ شجرة الصنوبر عند قمّة الجبل تحت الحائط، وابتسموا عندما سمعوا حكم الإعدام حتى بدت أسنانهم البيضاء، وظهرت في أعينهم سعادة الحصول على الشهادة في سبيل الله؛ صاح أحمد علاء الدين:

- أطال الله عمر سلطاننا! أطال الله عمر الدولة العليّة!

زأر محمد الواقف صامتًا منذ بداية المحكمة، مثل أسد عجوز:

- الله أكبر، الله أكبر!

وبقـي محمد عبد الله صامتًا؛ لم يكن بمقدور طُورَلِي أن يحكم عليهم بأقسى من هذا، غير أنّهم كانوا يبتسمون؛ تميّز طُورَلِي غيظًا، وقال:

- سيُنفّذ الحكم حالًا!

أُنزل المحكوم عليهم، وأمسـك الجنود الإيطاليّون السـتّة بأذرعهم مثل السـرطان؛ خـرج رئيس الكتّـاب على عجل برفقة المحكـوم عليهم، وترك الصِّحافيّـان دفاترهما جانبًـا، ونهضا تحيّة لهؤلاء الجنود النبلاء ممسـكين بقبّعتيهما، وأكثر ما أحزنهما أنّ حكم الإعدام سيُنفّذ في هذا الجنديّ الصغير!

سُـمـع دويّ السـلاح من الميدان جانب سـقيفة المحكمة، ثمّ شُـمّت رائحة البارود والدماء؛ دخل رئيس الكتّاب قائلًا بغرور:

- وضعت العدالة الأمور في نصابها.

ابتسم طُورَلِي، لقد طرأت على وجهه ابتسامة عابرة تشبه بسمة اعتلت وجوه الشهداء منذ قليل؛ مال صِحافيّ على أذن الآخر:

- أسنانه قاتمة الصفرة، مثل حيوان وحشيّ التهم فريسته!

- هيّا، لنذهب.

غـادرا المحكمـة دون أن يلتقيـا طُورَلِـي، وعند خروجهمـا من الباب بصقـا على الأرض اشـمئزازًا من أفعال تنافي الإنسـانيّة؛ اطمـأنّ طُورَلِي، فأمر الحرّاس:

- أحضروا المتّهمين الآخرين!







الجنود العثمانيون في غَزّة (فلسطين)



كتيبة أضنة "١٢٥"

أشار النقيب الشابّ إلى السُّفُن الإنجليزيّة قائلًا:

- هـذه بقاياهم مـن موقعة "جَانَـقْ قَلْعَه"، ولقد قدمـوا إلينا ليثأروا لهزيمتهم فيها.

عـام ١٩١٦م كان الجيـش العثمانـيّ موزّعًا على سـبعة أركان مختلفة فـي جِغرافيّـة شاسـعة، وكان مجبـرًا علـى الاشـتباك مـع ثعابيـن واجهته في سبعة أماكن، كان كأنّه أمّ تريد أن تحمي طفلها الصغير، وليس العصر عصر السـلطان يَاوُوزْ سليم، ولا عصر السلطان سليمان القانونيّ؛ فكانت تبحـث هذه الدولة الهرمة عن جواب لسـؤالها: هل سـتموت على فراش المرض أم ستحيا؟

كان الإنجليـز يهاجمـون بعددهـم وعُدّتهم جبهة فلسـطين بمشـاركة الوحدات المتبقّية من "جَانَقْ قَلْعَه"، ووردت الأخبار إلى غزّة بأنّهم يعدّون لهجمـة كبيرة، فكانـوا يجهّزون عُدّتهم لهذه الهجمـة؛ كانوا يتقدّمون مثل أسـراب الجراد تمحو كلّ ما يعترض سـبيلها، تحرق، تدمّر، أسراب جُنّت بهزيمتها في موقعة "جَانَقْ قَلْعَه"، وكانت قوّات حماية غزّة تدرك أنّ قوّات العـدوّ القـادم إليهـم أكبر عشـرة أضعاف منهـم، ولو كان لديهم أسـطول بحـريّ صغيـر، فربّمـا دفنـوا جنود العـدوّ القادميـن من البحر المتوسّـط فـي مياهـه، وليس على أرض غزّة، غير أنّهم لـم يكونوا أحفاد خير الدين بَارْبَارُوسْ، ولـم تكن لديهم ولو سفينة حربيّة واحدة في أسطولهم، وكانوا يفكّـرون قائليـن: "كان البحر الأبيض تحت سـيطرتنا عبر الزمان، أمّا الآن فإنـه يضربنـا"، وعندمـا قال صـلاح الدين الأيوبـيّ -السـلطان المحبوب

في الشرق-: "البحار تطرد العدوّ، والجبال تفتح له الطريق" إبّان مواجهته الوحدات الصليبيّة الغادرة؛ فهذا الحال تحقّق مجدّدًا في الأراضي الحارّة في الشرق الأوسط.

تلك البقاع -غير المتاح لها أن ترى الراحة ألبتّة في القرن التاسع عشر الميلاديّ- كانت تسخن من جديد؛ فقد شهدت غزّة المتمرّدين على الدولة العثمانيّة، وشهدت الإضلال والخديعة، ثمّ شهدت حملات المبشّرين الجائلين في أراضيها، وحقّق الإنجليز المتستّرون خلف الشرف والإنسانيّة في أعمال مثل فتح المستشفيات آمالهم، وعندما كانت تُفتح، كان أبناء الشرق الأوسط يتوهّمون أنّها بُنيت لهم، وأنّى لهم أن يعلموا أنّها تُبنى الآن ليستغلّها الإنجليز لصالحهم وقت الحرب؟

اتّفق الناس والأشياء جميعًا على مواجهة العثمانيّين؛ فمن ناحية كانت الأساطيل الملكيّة الإنجليزيّة من خمس عشرة سفينة في عرض البحر تطلق نيرانها الكثيفة دون توقّف، ومن ناحية أخرى كانت المدافع الإنجليزيّة الحديثة تطلق وابل نيرانها دون أمان، وكانت التقنية هنا تعني الوجه الآخر لاغتيال أكبر عدد من البشر، وكانت في غزّة قوّات لحماية المُدُن العثمانيّة لا غير في مواجهة جحافل الإنجليز.

كتيبة أضنة رقم مئة وخمسة وعشرين القادمة حديثًا من "جَانَقْ قَلْعَه" ستقاتل من جديد العدوّ نفسه في جِغرافيّة مختلفة، والدولة العثمانيّة غير المتوانية عن بذل دمائها منذ مطلع القرن التاسع عشر بقي فيها رمق لبذل هذه الدماء مجدّدًا، وكانت غزّة على وشك أن تبدأ مخاطرة جديدة مرّة أخرى.

كان من المتعذّر التخندق في مواجهة النيران المنطلقة من البحر، وكان الجنود العثمانيّون مجبرين على ترك خنادقهم، -يا غزّة لو متنا دونك،

فلـن يخرج أحد من المدينة، ولن نتخلّى عنك-؛ بدأت الوحدات العثمانية تنسحب داخل غزّة؛ فصارت مواقعهم في حوزة الإنجليز، وبدأت وحدات العدوّ تهجم على المدينة ملتفّة أيضًا خلف مواقع العثمانيّين، كأنّها قطعت اتصــالات الوحدات العثمانيّــة كلّها مـع البحر؛ كانوا على علم بأنّ الانتظار لن يفيد بأيّ شيء سوى زيادة عدد العدوّ؛ فوحدات العدوّ كانت في البداية عشرة أضعاف العثمانيّين ثم صارت الآن خمسة عشر ضعفًا.

لـم تكن ذخائر العثمانيّين كافية، ولـو أنّهم أصابوا بكلّ رصاصة عدوًّا واحـدًا، فلـن يُتـاح للذخيرة في أيديهم أن تضرب سـوى ثلث العدوّ ليس غير؛ وبدا واضحًا أنّ الهجوم بالحراب هو الحيلة الوحيدة؛ فصاح النقيب إبراهيم بَك الجِرِيتِي في الكتيبة مئة وخمس وعشرين قائلًا:

- أيّهـا الأسـود، لو لـم نهاجمهم الآن فسـوف يشـدّدون الحصار علينا أكثر، إلى أن يقطعوا تمامًا اتصالاتنا كلّها بالبحر، ولو تأخّرنا عن صدّهـم فـي هذا الهجوم، فإنّنا -معاذ الله- لن نسـتطيـع أن نفعل شـيئًا حتـى الهجوم بالحـراب؛ فذخيرتنا قليلة جدًّا، ولـزام علينا أن ندفعهم خلـف "مانْطَارْتَبَـه" بالحـراب؛ وسـنبيدهم هنـاك -إن شـاء الله- بمدد سيأتينا؛ ونصر الله لنا في كلّ وقت وحين، سامحوني!

ردّ عليه أفراد الكتيبة جميعًا في وقت واحد:

- سامحناك!

عُلّقـت الحراب علـى البندقيّات، وكانت هي أملهم الوحيد؛ لذا يجب أن تكـون ماحيـة لآثار العدوّ تمامًا، ولسـوف تُقذف الحـراب على العدوّ البالـغ عدده عشـرة أضعافها والمتمركز خلـف "مانْطَارْتَبَه"؛ بدأت الكتيبة "مئة وخمس وعشرون" في الهجوم على الأعداء في غزّة قبل بزوغ الفجر بصيحـات: "الله أكبـر، الله أكبـر"، وبـدأت معظم وحـدات العـدوّ الواقعة فـي شـباك الغفلة تهـرب بعدما تفاجؤوا فـي بادئ الأمـر، وعندما تجمّـع

جزء منهم بدؤوا في الهجوم المضادّ، وعندما حاصرت القوّاتُ الإنجليزيّة الأكثر عددًا منهم القوات العثمانية، صاح إبراهيم بَك قائلًا:

- تقدّموا -يا أولاد-، هؤلاء هم الإنجليز الهاربون من موقعة "جَانَقْ قَلْعَه"، لنلقّنهم درسًا آخر.

فقد تعرّف إبراهيم باشا جيّدًا إلى عدوّه خلال الأشهر التسعة أثناء موقعة "قَانْلِي صِيرْتْ"، فلا يرى ثمّة مانعًا أبدًا لإنجاز ما حدث في موقعة "جَانَقْ قَلْعَه" في غزو آخر، وكان الهجوم بالحراب يعني أنّ الدماء ستجري كالسيل؛ فقد اشتبك بعنف شديد الغزاة مع المجاهدين، ولم تتلألأ الحراب تحت شمس فلسطين، إذ غطّتها الدماء المنثالة؛ كانت الأيادي والبندقيّات ملطّخة بالدماء؛ فكانت غزّة خير مثال على حرب ضروس انهكت القوى وامتزج فيها العرق بالدم؛ كان قتال الحراب يستمرّ بكلّ قوّته وبكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وكانت غزّة تبكي دمًا، وكان الدم يسيل على الأرض الهامدة؛ إنّها الصيحات والتكبيرات وصرخات الموت، واصطدام الحراب...

كان النقيب إبراهيم يتحرّك كأنّه البرق الخاطف، ويقفز بحربته على الأعداء، وقد حُوصرت جوانبه كلّها، وقد أصابت كلّ حربة ألقاها هدفها بسهولة؛ ومع كلّ حربة كان يموت عدوّ أو جنديّ عثمانيّ؛ كان يضرب الأعداء بحربته بكلّ قوته وبكلّ ما تحمله الكلمة من معنى دون أن يعلم أنّه مرصود من الإنجليز، وكانت الفرصة سانحة أمامهم أن يقتلوه وقد فهموا من بزّته أنّه ذو رتبة في الجيش العثمانيّ، صوّبوا بندقيّاتهم، وأطلقوا النار عليه حين غِرّة، بينما كان يسدّد ضربة بحربته نحو العدو أمام قائده؛ تلقّى ضربة بحربة في جانبه الأيسر، وتلاقت أعين عدوّين؛ فرأى الإنجليزيّ الكراهية في عيني إبراهيم بَك المنقضّ عليه، فضغط الجنديّ هذه المرّة زناد البندقيّة، فأصاب النقيبَ إبراهيمَ في جانبه الأيسر،

تمايـل أوّلًا بشـدّة، أحسّ أنّ ثمّة نـارًا تكوي جانبه، ثمّ أحسّ بقشـعريرة، وسقط مكانه مثل شجرة الدُّلْب.

كان كلّ مشغولًا بحاله، فلم يره أحد باستثناء حسن تحسين بن محمد القُوزَانِي؛ فصاح صيحة هزّت الجبال:

- سيّدي القائد.

قفز كأسـد، وغرس حربته في أحشـاء الإنجليزيّ قاتـل قائده، وأخرج أمعـاءه؛ بعثرهـا فـي المـكان، ثمّ انحنـى، واحتضـن العريف وسـط هذه الفوضـى، وحـاول إنقاذه من هذا الحال، بينما تنـاول الجاويش رُوخْصَارْ الأَضنَـوِيّ إحـدى البندقيّات الرشّاشـة، وبدأ يركض صـوب "مانْطَارْتَبَه"، وكان يُهـرع مثـل أب يخلّص أولاده من الحريق، حلّت به قوّة لا يشـبهها شـيء؛ فليس ثمّة بندقيّة تُرفـع بهذا القدر من السـهولة، ولا يسـتطيـع أحد أن يركض بهذه الطريقة، وعندما علّق شريطة القذائف على البندقيّة، ابتهل إلى الله بالدعاء قائلًا:

- ربِّ، لا تشمت بي أحدًا، ولا توقعني مهانًا في يد العدوّ.

ضغط الزناد، ارتعشت يده من اهتزاز البندقيّة، اقشعرّت أبدان الإنجليز من سماع صوت البندقيّة الرشّاشة؛ قطـع صوتها غيره من الأصوات كلّها؛ كانـت طلقات البندقيّة تنهمر على الأعـداء، كأنّها إعصار الموت، وعندما تشـتّت شمل الإنجليز كأنّهم حبّات سُبحة انقطـع خيطها، توجّه رُوخْصَارْ إلى ربّه بالحمد والشكر، ثمّ صَعِدت أيضًا بندقيّات أخرى على "مانْطَارْتَبَه" حاصرتهم وكادت تفنيهم.

سُـمـع دويّ انفجار، لكن لم يظهر من أين أتى، وسُـمـع أيضًا صوت رُوخْصَارْ قائلًا:

- هلكتُ...

أُصيب ذراعه؛ حاول مجدّدًا أن يمسك زناد البندقيّة غير مكترث بذراعه المضرّجة بالدماء، وقد نفدت شريطة القذائف مثل ذراعه التي أنفدت قوّته؛ إذ كان يفقد الدم بسرعة، ولم يعبأ بنصح من حوله القائلين:

- رُوخْصَارْ، يكفي هذا، هيّا، فلتذهب إلى المستشفى.

لم يبالِ بحديثهم هذا، وزحف نحو البندقيّة ليعلّق شريطة قذائف أخرى، ولولا قول قائد الكتيبة عثمان بَك: هيّا يا بنيّ، اذهب إلى المستشفى؛ فنحن بحاجة إليك، ما كان لأحد أن يُخرجه من هناك؛ إذ لا يمكن أن يعصي أمر قائده؛ تأبّط جنديّان ذراعيه، وأنزلاه من الهضبة، رأى الشهداء على الطريق، كان يعرف أحد الشهداء البواسل المضرّجة أجسامهم بالدماء، وعندما مرّ جواره تذمّر قائلًا:

- هل أنت أيضًا من قُوزَانْ؟

انضمّ القُوزَانِيّ حسن تحسين إلى قافلة الشهداء؛ أُصيب بعد أن حرّر قائده، اغرورقت عينا رُوخْصَارْ بالدموع، وصاح في الجنديّين المتأبّطَي ذراعيه قائلًا:

- بالله عليكم، لا تحملاني إلى المستشفى؛ اتركاني ها هنا!

نُقل رُوخْصَارْ رغمًا عنه إلى المستشفى، وكان قائد الكتيبة قلقًا؛ إذ كان يعرف مدى قوّة العدوّ؛ فقال لجنوده:

- أيّها البواسل، فلتنتبهوا لما حولكم، أنا أعلم أنّ هؤلاء الكفّار سيأتون إليكم من جديد على نحو أشدّ بأسًا وقوّة، نسأل الله العون والمدد، وألا يُصغّرنا في عين سلطاننا بسببهم!

فأمّن الجنود على دعاء القائد المحنّك:

- آمين!

أفـاق رُوخْصَـازْ على صداع شـديد، وألـم جاثم على ذراعه الأيسـر، بدأ ينظر حوله دهشًا كأنّه طفل تتفتّح عيناه المرّة الأولى على الدنيا، ففتح عينيه على غَبَش، فتراءى له شبح إنسان؛ فقال:

- هل أنا مِتّ؟

- كلّا، أيّهـا الشـجاع، الجبهـات تنتظـرك، كتـب الله ربّ العالمين لك عمرًا جديدًا، فلتحارب في سبيله!

غادر الطبيب المسنّ قائلًا:

- شفاك الله!

ربّما انعكس بريق مئزره ناصـع البياض على شعره، سمـع صوتًا أجشّ من جانب قريب:

- عافاك الله يا رُوخْصَازْ!

رفـع رأسه قليلًا، ونظر إلى جهة الصوت قائلًا:

- سيّدي القائد، هل أنت العَرِيف إبراهيم؟

- نعـم، أنـا رُوخْصَازْ، ليس لي حـظّ أن أنال الشـهادة في الجبهة، وها أنا ذا أنتظر هنا!

- أطال الله عمر دولتنا، سيّدي القائد!

- ماذا حدث لك؟

- أُصبت في "مانْطَارْتَبَه"سيّدي القائد.

- أحق ما يقولون: "أسفرت الحرب عن انتصارنا"؟

- صدق، أيّها القائد.

ظهرت ابتسامة رقيقة على وجه النقيب إبراهيم قائلًا:

- الحمد لله، يا رُوخْصَازْ أسأل الناس جميعًا ولا أحد يعرف!

- عن أي شيء، أيّها القائد؟

- تذكّرت شيئًا غير واضح بعد أن أُصبتُ؛ احتضنني حسن تحسين، وأنقذني من المعمعة؛ أين هو الآن؟

لم يستطع رُوخْصَارْ أن يتكلّم، ولم يشأ أن يُفجع النقيب الجريح بجرح غائر أكثر إيلامًا؛ اغرورقت عيناه بالدموع، وربّما ظهرت دموع عينيه، فأدار رأسه إلى الجانب الآخر.

- ماذا حدث يا رُوخْصَارْ؟ لم تجب عن سؤالي!

استطاع رُوخْصَارْ أن يقول:

- لا شيء، سيّدي القائد.

عندما أخفى دموع عينيه على الوسادة، سمع النقيب إبراهيم نشيجه؛ ليس لهذا السؤال سوى إجابة واحدة، وهي أيضًا دموع العين!

مضت عدّة أسابيع بعد ذلك، تقدّم الإنجليز هذه المرّة صوب غزّة بحنق كبير، وكان الفرسان يسيرون في جانب والمدرّعون في جانب، وكان حنقهم أكبر من مُثار النقع خلفهم، وبدأ وابل القذائف من البرّ والبحر على "مانْطَارْتَبَه"، كانت تلك القذائف تهلك كلّ من تقع عليه، وكان الجرحى في المستشفى يسمعون أصوات الانفجارات، ولم يقل أحد: "الحالة المعنوية للجرحى سيّئة"، غير أنّ الجنديّ العثمانيّ يستشعر الأحداث الجارية من حوله؛ صاح أحمد القَرَا عِيسَوِي في جانب العنبر قائلًا:

- أستحلفكم بالله؛ اتركونا جوار إخوتنا.

ثمّ حاول أن ينهض من سريره؛ نزف جُرح صدره مرة أخرى؛ انهمر الدم على الضمادات البيضاء كلّها مثل شقائق النعمان؛ أقبل الطبيب المسنّ راكضًا:

- أي بنيّ، كيف ستحارب وأنت على هذه الحال؟ هيّا، ما بك، ارقد، انظر، انفتح الجُرح مرّة أخرى.

- سيّدي القائد، لو عجزت عن القتال، فعلى الأقلّ سأموت في أرض المعركة.

لم يستطع أن يقاوم الألم وأُغمي عليه، ولو أنّهم تركوهم، لذهب رُوخْصَارْ إلى الجبهة، غير أنّ ذراعه اليمنى المنوط بها الحمل كانت ممزّقة، ويجب علاجها، يجب أن يخرج سليمًا في مواجهة الأعداء، وكان النقيب إبراهيم بَك يبتهل إلى الله بالدعاء بشفتيه اليابستين.

عاد العدوّ إلى "مانْطَارْتَبَه" وكأنّ العميد محقّ، وليس مع جيشنا أسلحة تحميه في الهضبة من حشد الأعداء الهائل، وأنّى له أن يصدّ هذا الهجوم الكاسح بالبندقيّات اليدويّة، وأنّى لنملة أن تصطدم بفيل؟ كان النقيب إبراهيم يدعو لأصدقائه العُزْل، وكان رفاق السلاح يضحّون بدمائهم للدفاع عن غزّة، غير أنّ الأعداء هجموا هجومًا غادرًا حتى إنّه لم يبقَ جنديّ عثمانيّ واحد في الهضبة، وربّما ارتفعت من جديد هضبة كوّنتها القذائف الضخمة من أجساد الشهداء، ونجح الباقون في إخراج أسلحتهم من الميدان، وانتقلت "مانْطَارْتَبَه" من جديد إلى قبضة الإنجليز، وكان أوّل عمل اضطلعوا به في الهضبة أنّهم نصبوا البندقيّات الرشّاشة.

لم تقوَ كتيبة أضنة "مئة وخمس وعشرون" على تقبّل الأحوال الجارية، وماذا عساها أن تفعل؟ يجب أن تستعيد الهضبة من جديد؛ وكان أبطال "جُوقُورْ أُوَا *(Çukurova)*" عازمين على أن يسطروا هنا ما يشبه أسطورة "جَانَقْ قَلْعَه".

لَفَحَ الحرّ الشديد الإنجليز غير المعتادين أن يروا الحقيقة الصادقة ولو كانت واضحة مثل الشمس في ضحاها، أمّا بواسل "جُوقُورْ أُوَا"، فكانوا معتادين على حرّ أضنة، وبدأ جنودنا في إطلاق المدافع حتى إنّها كادت تُصمّ آذان الإنجليز وقت الظهيرة مستراحهم من الحرّ، واقترن هجوم الكتيبة مع فرقة المدفعيّة التي دكّت الهضبة، استيقظ الإنجليز

من القيلولة بالمدفعيّة العثمانيّة ولم يتوقّعوا مقاومة على هذا النحو؛ هبّت رياح الحماسة مرّة أخرى في المستشفى؛ إذ سمع النقيب رُوخْصَارْ دويّ الانفجارات، وكان إبراهيم بَك يسأل بعد كلّ انفجار أو انفجارين:

- هل حُرّرت غزّة؟

أسفر هجوم الكتيبة "مئة وخمس وعشرون" عن نصر مبين، وأسر العثمانيّون الجنود الإنجليز جميعًا على الهضبة، وغنموا أسلحتهم، وأخبر رجال الاستطلاع الزعيم عثمان بَك بقدوم ثلاثة فرسان يَغْدُون ناحيتهم، نظر الزعيم إلى القادمين وهم يبتسمون ابتسامة عريضة؛ وتفتّحت من جديد زهرة الابتسامة في وجهه بعد شهور:

- هؤلاء منّا، انظر أيّها الملازم، أليس هذا صفوت وسط القادمين؟

- بلى، إنّه هو، يا سيّدي القائد.

في غضون بضع دقائق وصل الفرسان إلى الفوج، نظر عثمان بَك في وجوه القادمين، وبعد أن ألقى الملازم صفوت الإسطنبوليّ التحيّة العسكرية قال:

- سيّدي القائد، ما مصيرنا ومصيركم؟

- أوّاه، يا صفوت، كم من جرُح أصابك في "جَانَقْ قَلْعَه" وما فتّ هذا في عضدك! ألم يصبك شيء هذه المرّة؟

أظهر جُرحًا في رأسه قائلًا:

- سيّدي القائد، هذه المرّة سقط أخمص البندقيّة على رأسي.

ترجّل عن جواده، ووصل إلى جانب الزعيم؛ فعانقه بحرارة قائلًا:

- ما الأمر، يا صفوت؟

- خير إن شاء الله، سيّدي القائد أتيت لأخبركم أنّ مددًا سيأتيكم قريبًا.

- الحمد لله، هل ثمّة أخبار عن بلدنا؟

- أحضرنا لكم الرسائل معنا، يا سيّدي.

- جزاك الله خيراً! أنتظر الرسائل منذ وقت طويل.

- تفضّل، سيّدي القائد.

أتى كاتب الكتيبة مسرعًا، وتسلّم الخطابات، وقرأها واحدًا واحدًا، ولن يُتاح لبعضها أن يصل إلى أصحابها في هذه الدنيا، فنحّى الكاتب خطابات الشهداء جانبًا، ثم تلا بصوت مرتفع الأسماء على الخطابات الأخرى، ووزّعها على أصحابها، كانت الخطابات معبر القلب من أضنة إلى غزّة.

حمل ما بقي في يده منها إلى أصحابها في المستشفى، وعندما رآه النقيب إبراهيم بَك أراد أن يتأكّد ممّا علمه؛ فسأل:

- هل حُرّرت غزّة حقيقة أم لم تُحرّر؟

- حُرّرت، سيّدي القائد.

قدّم الكاتب إلى النقيب خطابًا من زوجته –مرّ على زواجهما عام–؛ أمسك النقيب الجريح الخطاب بيده، وقرّبه من عينيه، وبدأ يقرأ الكلمات الأولى، وتعلو وجهه ابتسامة:

"زوجي العزيز عماد بيتنا، كيف أنتم؟

نعدّ كلّ يوم أنا وطفلنا –رُزقنا به منذ شهرين– ما تبقّى من وقت على عودتك من الجبهة إلينا..."

سقطت ذراعه فجأة، وكان الخطاب ما زال في يده؛ جاء الطبيب المسنّ مسرعًا إليه، وعندما غطّى الطبيب وجه النقيب بملاءته، قال حزينًا:

- لن تنجو غزّة من الدم أبدًا!





بويوك عثمانلى اوردوسنك مقدس باش قوماندانى بشنجى سلطان محمد خان حضرتلرى

السلطان محمد رشاد



عبرات العثمانيّين

استقبلت عاصمة الخلافة العثمانيّة شهر رمضان الكريم بأسًى وحزن بالغين؛ كانت الدولة العليّة تعيش أصعب سنوات وأطولها في إسطنبول؛ إذ فقدت في بضعة شهور ما فتحته عبر الحِقَب والدهور، وتجمعت عليها المصائب من كلّ حدب وصوب؛ إذ اتّكأت على شجرة الدُّلْب الضخمة، وانقطع خيط السُّبحة.

كانت الأخبار المُرّة من البلقان تسّاقط قطرات من حميم على قلب السلطان؛ إذ اتّحدت أقاليم البلقان في مواجهة العثمانيّين، يشنّون عليهم هجومًا شنيعًا إثمًا وعدوانًا، بينما كان الجيش العثمانيّ بأسهم بينهم شديد، والعدو يصول ويجول في حياض الدولة بعد سقوطها في الفتنة؛ فلم تعد ثمّة ضرورة للبحث عن العدوّ الخارجيّ في دولة أمسك الاتّحاديّون فيها بأزمة الحكم كلّها.

ها هو السلطان محمد رشاد حزينًا كئيبًا، ضاقت عليه الأرض بما رحبت من قصر "دُولْمَه بَاخْجَه" بل "صَرَايْ بُورْنُو" و"بَشِيكْتَاشْ" و"أُورْطَه كُويْ" ومن خليج البوسفور إلى ما حوته هذه البقاع كلّها من جمال وجلال، وأصبحت إسطنبول خانقة لذاك السلطان الهرِم؛ فأدرك أنّ السلطنة صارت رمزًا فقط في يده، أمّا مقاليد الدولة، ففي يد الآخرين.

فهل صارت الدولة مثل الكتابات المنيرة الموقدة بين مآذن المساجد؟ كانت تلمع في بادئ الأمر رويدًا رويدًا، ثمّ صارت كسيل نور يلمع ويتلألأ كلّما تحمّس وتوهّج، فلمّا قلّ زيت تستمدّ منه بريقها ولمعانها، فقدت هيبتها ووقارها، ثمّ انطفأت معظم القناديل فترة وجيزة

رغم أنّ بعضًا منها ظلّت مضيئة، وباتت الكتابات في مواجهة الظلام؛ فهل كانت النجوم التي لمعت بين المآذن، ثمّ انطفأت مثالًا للدولة العليّة؟

صارت الدولة -التي خضعت القارّات الثلاث والأقاليم السبعة لعظمتها عبر العصور- كأنّها غازٍ أشلّ قُطعت يده ورجله، شعر السلطان أنّ مدن البلقان بدأت تتمرّد منذ أربع سنوات؛ فتجوّل في البلقان، في "سَلَانِيكْ *(Selanik)*" و"أُوسْكُوبْ *(Üsküp)*" و"بِرِيشْتِينَه *(Piriştine)*" و"كُوسُووَا *(Kosova)*" و"مَانَاصْطِيرْ *(Manastır)*"، وقُوبل بترحاب فيّاض، غير أنّ ما عايشه السلطان في البلقان في إقليم "كُوسُووَا" كان مختلفًا تمامًا؛ إذ أدّى صلاة الجمعة مع بضعة آلاف من المسلمين غير بعيد عن قبر السلطان مراد الأوّل؛ أوّل سلطان شهيد، وكأنّ التاريخ لم يكن عام ١٩١١م؛ إذ رجع السلطان بالتاريخ نحو خمس مئة واثنين وعشرين عامًا، إلى عصر القوّة والعزّة، فقال في نفسه: "ياترى، ماذا لو كان جيشي، مثل هذه الحشود المتجمّعة حولي؟ حينئذٍ أستطيع السير إلى الصليبيّين"! ولكن هيهات هيهات، فلا جيش مراد معه الآن، ولا أوربّة وقتئذٍ هي أوربّة الآن، فلمّا أصبح الزمان مِبردًا وفتّت الدولةَ العثمانيّة، لم تعد هناك فرصة للنصر في كُوسُووَا، ولم يعد الأمر يحتمل التضحية بجنود عثمانيّين هناك... ولم تترك الدولة العليّة التي عاشت في عهد الأجداد أروع الانتصارات وأسمى الدرجات شيئًا ألبتة لأحفادها؛ فما في اليد كان بقيّة خزانة مبعثرة، ورغم ذلك كان هناك من يشخصون بأبصارهم إليها.

جثمت مصيبة البلقان على صدرها كالجاثوم المخيف قبل أن تستفيق من صدمة الاحتلال لطرابلس الغرب، وكانت الدولة والناس ينتظرون انتهاء الجاثوم قائلين: اهتزّ الجاثوم، أو سيهتزّ، ولكن هيهات، هيهات؛ فما تمرّ به الدولة من أحوال كانت سيّئة، مثل: الجاثوم، وحقيقيّة، مثل: الحياة!

بدا واضحًا في هذا العصر أنّنا لن نستطيع أن نستردّ ما فقدناه، رغم ما في النفوس كلّها من أمانيّ استرداده؛ كانت الآمال معقودة على العودة من جديد إلى الأيّام العظيمة الخوالي؛ إذ كان الجيش فيها يهزّ الأرض والسماء بهيبته، والسفير العثمانيّ يرعب ملك الأعداء، وأسطولنا السلطانيّ يرعب البحار، والمدافع العثمانيّة تدمّر الأسوار؛ ماذا بقي من تلك الأيّام غير مسامرات المقاهي، وبعض العجزة يتحسّر في أركان المساجد وهم يقصّون العظمة عن أجدادهم الكبار! يُحكى كلّ شيء عن تلك الأزمان الغابرة، كأنّه أسطورة أو حياة جميلة انتهت؛ كانت الدولة العظيمة تموت رُويدًا رُويدًا!

من ناحية أخرى كانت الشكاوى الواردة من القصر كالملح على جراح السلطان، وكأنّهم لم يكتفوا بعشرات المصائب تترى في الدولة؛ إذ ورد إلى مسامع السلطان تهاون البنات في حريم القصر في الصلاة والصيام؛ فغضب السلطان فجأة، وأرسل إلى صفية أونيوَارْ معلمتهنّ خبرًا يقول فيه: "الإعانة ممنوعة عمّن تتهاون في الصلاة والصيام، ولتخبري الطالبات بهذا"، وقد علّقت السيّدة صفية منقادة لأمر السلطان لائحة بالحروف الكبيرة على باب المدرسة في حريم القصر مكتوبًا فيها:

"ممنوع دخول من لا تصلي ولا تصوم".

كان السلطان لا يريد أن تُقحم دولته المنهكة الجريحة في الحرب العالميّة الأولى، لكن عندما ساق القادة الثلاثة المتحمّسون من الاتّحاد والترقّي الدولة إلى مصيرها المجهول، ولم يكن بمقدور السلطان الهرم أن يفعل شيئًا لكبح جماح ثورتهم، ولم تكن هناك حيلة سوى الابتهال إلى الله بالدعاء لنصرة الجيش، أُعلن الجهاد بعد ثلاثة أيّام، ووافق ذلك شهر رمضان، أُعلن الاستنفار العامّ في أراضي الدولة العثمانيّة؛ فتأوّهت الجدران والأزقّة تحت وطأة الطبول الرمضانيّة معلنة كلّ يوم حالة الاستنفار العامّ في الجيش العثمانيّ.

كانت الجبهة الأولى للحرب العالميّة ستُفتح في الشرق، وكان السلطان نفسه هو القائد العامّ، غير أنّ ذهابه في هذه السنّ إلى الميدان وإدارته للحرب أمر عسير، وفي الحقيقة لم يكن شباب الاتّحاد والترقّي يريدون أن يقود السلطان الحرب، وعُيّن وزير الخارجية أنور باشا نائبًا للقائد العام.

لم يعلم أحد شيئًا عن حقيقة الأحوال في جبهة القوقاز المشتعلة في الشرق، غير أنّهم سمعوا أنّ قائد الجيش الثالث الميدانيّ حسن عزت باشا استقال من منصبه، وأنّ أنور باشا نفسه سيقود الجيش الثالث، وكان حافظ حقّي -وقد ذهب إلى الجبهة- تربطه أواصر مصاهرة مع القصر؛ إذ تزوّج أخوه الأكبر بالأميرة بهيّة حفيدة مراد الخامس، وطار الخبر إلى القصر في شهر شباط/فبراير عام ١٩١٥م يحمل معه برودة "صَرِيكَامِيش *(Sarıkamış)*" وكآبتها؛ إذ أصيب حافظ حقّي باشا قائد الفيلق العاشر بحمى التيفوس، ومات إثر ذلك؛ فكّر السلطان في حالة الجند على الجبهة التي أَلَمّ المرض فيها بقائد الفيلق، يا ترى، كيف كانت الأحوال في تلك الجبال؟

كان أنور باشا يتحدّث عن الالتحام مع الروس لإيقاف تقدّمهم، وقد أظهرت وفاة حافظ حقّي باشا كم كانت الأخبار المنقولة إلى القصر بعيدة عن الحقائق! وكان من الضروريّ إعلام زوجة الباشا بخبر وفاته -وهذا أصعب ما في الأمر-؛ فأمر السلطان بعض خاصّته قائلًا:

اذهبوا حالًا إلى "أُوزْطَه كُويْ"، وأخبروا برفق السيّدة الأميرة بهية بالأخبار الواردة إلينا.

ماذا عسى السلطان أن يفعل؟ فهو يعلم تمامًا أنّ النار ستلتهم ما حوله، وتأتي عليه، لكن لا يكلّف الله نفسًا إلّا وسعها؛ فقبْل انتهاء الحروب المشتعلة في الشرق، نشبت أخرى في "جَنَاقْ قَلْعَة"، وهذا يعني

أن العاصمـة فـي خطر، كان يفكر دائما في هـذا الأمر؛ إذ لم يتعرّضوا قطّ لهجوم عاتٍ مثل هذا، وكلّما هُوجم مضيق "جَنَاقْ قَلْعَة"، شـعر السـلطان بضيق في صدره؛ كان يبتهل كلّ يوم إلى الله أن ينصر جنودنا قائلًا: "اللهُمّ، مدّنا بجندٍ من عندك، وانصر جيشنا السلطانيّ".

تذكّر السـلطان تحايا سلاح المدفعيّة له قبل ثلاث سنوات في حصون "جَنَاقْ قَلْعَةْ" عند عودته من "رُومْأَلِي"، وها هي الآن تطلق قذائفها؛ لتوقف اعتداء العدوّ الغادر على قلاعنا؛ فعبور الأعداء "جَنَاقْ قَلْعَةْ" يعني سقوط إسـطنبول من أيدينا، وضياع كلّ شـيء، ولم يبقَ ثمّة حيلة سـوى الدعاء، وكان من المتعذّر موازنة عدد الجنود العثمانيّين وعتادهم بهؤلاء؛ إذ خلت "جَنَـاقْ قَلْعَةْ" من الحمايـة لذهاب مئات الآلاف من الجنود إلى الجبهات الأخـرى، وكانت الأخبار تتوارد عن تسـجيل الطلبة في المدارس الثانويّة متطوّعين؛ فلا ريب أنّ الأنامل التي أمسكت القلم، ستمسك البندقيّة!

أمّا النساء؛ فكان بعضهنّ يعمل في مستشفيات الهلال الأحمر لتضميد جـراح الجنود القادميـن من الجبهـة؛ فتتلطّخ أياديهنّ بالدمـاء، وبعضهنّ الآخـر يعمـل على حياكـة ملابس الجنـود بعيون سـاهرة سَـهِدة؛ فتوخَز أياديهنّ بالإبر لعملهنّ المتواصل ليلًا ونهارًا في معامل المنتجات الحربيّة.

ذاع في إسطنبول خبر سارٌّ من "جَنَاقْ قَلْعَةْ"؛ إذ جاءت البشرى: "حطّم أبناء الدولة العليّة الشـجعان الأصفاد المراد تطويق أعناقهم بها"، وسُـمـع خبـر آخر: "غرقت السـفن المزمـع اختراقها مضيقنا في مياه البوسـفور"؛ فترقّب الناس أيامًا وليالي طويلة كي يسمعوا الخبر: "هربت سفن الحلفاء مـن "جَنَـاقْ قَلْعَـةْ" لا تلـوي على شـيء"، وذات يوم ورد الخبر المنشـود على لسان أحد الضباط المتحمّسين:

- سيّدي، هزم الجيش السلطانيّ أعداء الوطن والدين في "جَنَاقْ قَلْعَةْ".

تأثّر السلطان الهرِم، وخرّ ساجدًا لله شكرًا، ثمّ أراد أن يسكب مشاعره على الورقة؛ فخطّ قلمه تلك الأسطر:

"هاجم الأعداء "جَنَاقْ قَلْعَةْ" برًا وبحرًا،

وتربّص بأهل الإسلام عدوّان قويّان،

بيد أنّ مدد الله أدرك جيشنا،

كلّ جنديّ قلعة محكمة البناء؛

فكان أولادنا الجند في عزم السادات؛

أدرك الأعداء في نهاية الأمر عجزهم؛

فلاذوا بالفرار بلا قَدْر، أو منزلة، أو مال،

رغم أنّهم جاؤوا ليصلوا إلى قلب الإسلام؛

فليسجد رشاد لله مبتهلًا إليه بالدعاء؛

إذ حفظ الله مُلك الإسلام"

رغم ورود البشرى من "جَنَاقْ قَلْعَة"، كانت الأخبار المحزنة تترى من الجبهات الأخرى؛ لتحزن السلطان الهرِم أكثر، وكان الوقت شهر رمضان، أمر السلطان بدعوة تَوْفِيقْ بَك رئيس التشريفات لملاقاته:

- سنزور غدًا قبور السلاطين محمد الفاتح، وسليم، ووالدي، وستكونون في رفقتي:

أجاب توفيق بَك:

- طوع أمرك ياسيّدي.

واصل السلطان حديثه:

- كان السلطان سليم العامل الرئيس في قوتنا وفي انتقال الخلافة الإسلاميّة إلينا، وكان والدي سببًا في وجودي، إنّ السلطان سليم أعظم من والدي، وكان والدي يكنّ له حبًا وإجلالًا؛ ولهذا فقبره بجوار قبر السلطان سليم، ولزام عليّ أن أزوره.

غادر رئيس التشريفات ممتنًا بعد لقائه السلطان، وتحدّث السلطان طويلًا لمن حوله عن السلاطين العثمانيّين الأقدمين وعن تمنّيه لو عاش في عصورهم، وعن الأراضي والأقاليم المفقودة، وعن حروب طويلة بدأت مع الربيع، وديار سافر إليها في مواسم الزهور نفّاذة الرائحة، وعن فرقة الموسيقا العثمانيّة الصادحة بأعلى صوتها... كان السلطان يحكي حلمًا عثمانيًا ضائعًا، ويخفي خلف كلماته حسرته على تردّي دولته، وغبطته للسلاطين القدماء، لكنّه لم يشعر بتأثّر من حوله بما قصّه، حتى إنّ أحدهم نهض قائلًا بوقاحة:

- لنترك يا سيّدي رئيس التشريفات توفيق بَك بجوار السلطان سليم.

فقال السلطان حزينًا:

- لوكان السلطان يَاوُوزْ سليم حيًّا، فهل كنتم تستطيعون أن تتفوّهوا بهذا الكلام في حضرته؟

كلّا، ليس من الممكن ذلك، وهذا يعني أنّ هيبة السلاطين تضعف، كلّما أخذ نجم الدولة في الأفول، ورغم قول السلطان: لا تقولوا هذا، إلّا أنّه قال بالأسلوب الوقح نفسه:

- فلنضع توفيق بَك بجوار عمامة السلطان سليم!

صمت السلطان!

في اليوم التالي وقفت عربة السلطان أوّلًا أمام جامع الفاتح، وزار قبر السلطان محمد الفاتح، ونهض خادم الضريح العريق لاستقبال السلطان، ودعا الله للدولة العثمانيّة، وأن ينصر الجيش في حروبه كما نصر السلطان محمد الفاتح؛ وذهب السلطان إلى خادم الضريح، وتحدّث معه فترة، وسأله عمّا يحتاج إليه، فلو أنّه ترك صرّة من الذهب، كما كان السلاطين القدامى يفعلون، لكان ذلك أفضل، لكن لا الحكّام القدماء هناك،

ولا الخزانـة القديمة كذلك؛ قبّل السـلطان يد خـادم الضريـح، وانصرف، وقال لمن حوله:

- إن خـادم الضريـح هذا كان هنـا أيضًا منذ عهـد والدي، وعمره تعدّى مئة عام.

ثـمّ زار ضريحي السـلطان الكبير يَاوُوزْ سـليم ووالده السـلطان عبد المجيـد، وعندمـا تقدّمت عربة السـلطنة مـن الطرق المعبّـدة بالحجارة فـي "شَـهْزَادَه بَاشِـي" إلى الرصيف أمام بـاب "صُوغُوكْ جَجْمَـه" باتّجاه "دِيـوَانْ يُولُـو"، كانـت أشـجار الدُّلْب الضخمة -الشـاهد الحـيّ الوحيد علـى كثيـر من السـلاطين والأحداث- تشـاهد هـذا السـلطان الحزين، فلم يبقَ شيء من آثار الدولة العظيمة العتيقة ولا من ثرواتها؛ إذ أصبحت الدولـة سـفينة عتيقـة مـن دون سُـكّان تشـقّ طريقًـا مجهـولًا، لا تعرف على أي الشـواطئ ترسـو؟

فـي الخامـس عشـر مـن شـهر رمضـان، كان السـلطان رشـاد خارجًا من صلاة الظهر في مسجد "دُولْمَه بَاخْجَه"، وكان يوم زيارته البردة الشريفة للنبيّ ﷺ بمتحف قصر "طُوبْ قَابِي"، وكان من المقرر أن يذهب السـلطان إلى قصر "دُولْمَه بَاخْجَه"، وقوارب السلطنة تنتظره.

تحدّث السلطان محمد رشاد إلى قائد الجند خورشيد باشا بجانبه قائلًا:

- لـن يأتـي موظفـو التشـريفات فـي القصـر، ولا رئيـس الكتّاب معنـا لزيارة البردة النبويّة الشـريفة، ولا تنتظـروا أنتم أيضًا بعد الانتهاء من طقوس الجمعة.

ويعـد أمـر السـلطان رحـل جمـع كبيـر من الحضـور، وسـار الباقون فـي معيّـة السـلطان إلى المينـاء، ومخر قاربان سـلطانيّان عبـاب الأمواج في مضيق البوسـفور، وكان عقل السـلطان أكثر تموّجًا من مياه البوسفور،

نظر السلطان العجوز إلى البوسفور، وقد تعانقت الخضرة والزرقة معًا تحت شمس الصيف، وانتهى موسم نباتات الأرجوان ضيف البوسفور منذ ثلاثة أشهر، ربّما كانت الوحيدة المستخدمة في تزيين القوارب السلطانيّة، وكان الحرّ الشديد شهر تموز/يوليو قد تبخّر مع الرياح البوسفوريّة الباردة، وفي الحقيقة ما كان شيء يمكنه أن يريح قلب السلطان ولو تلك الرياح، وعندما وصلوا إلى "سِيرْكَجِي"، هُرع المنتظرون على الميناء -مع العربات السلطانيّة- نحو القوارب؛ ليساعدوا من فيها على النزول، وركب السلطان -كان في الثالثة والسبعين من عمره- عربته وئيدًا، وركب بعده أيضًا قائدان من قادة الجند، وجلسا في مواجهته، وليس في الأرجاء صوت سوى ما لعربات الخيل المتقدّمة من إيقاع عند الحافة الممتدّة لحديقة "كُولْخَانَهْ" بجوار محطّة "سِيرْكَجِي"، وتقدّمت العربة تجرّها الخيل في الطريق المعبّد بالحجارة واثبة من حجر إلى حجر، وكان السلطان يهتزّ في تعب، وحوافر الخيل تضرب الحجارة الحادّة في طريقها...

اعتلّ مزاج السلطان، ليس اليوم ولا أمسِ، بل منذ أعوام، وشعر السلطان بازدياد درجة الحرارة كلّما ارتفع عن "صَرَايْ بُورْنُو"، وانخفضت برودة البوسفور؛ فتعرّق، وذكّره هذا الحرّ بأنّ الدولة العثمانيّة تذوب، كأنّها قطعة ثلج في بحر لجيّ مجهول.

دخلوا القصر من الباب البرّيّ الخامس المطلّ على حديقة "كُولْخَانَهْ"، وكالعادة مرّ السلطان على قصر المجيديّة، واستراح قليلًا في الغرفة شمال الباب؛ إذ كان هذا القصر تذكارًا عن والده، وكان في أجمل مكان في قصر "طُوبْ قَابِي"، وكان السلطان عبد الحميد الثاني -الأخ الأكبر للسلطان محمد رشاد- يفضّل النزول بهذا القصر الصغير عند مجيئه إلى "طُوبْ قَابِي"، وكانوا يحيون ذكراه فيه.

كان رئيس القصر يجلس مواجهًا للعرش، وكان الأمراء الثلاثة ينتظرون واقفين، ثمّ نادى السلطان رئيس التشريفات توفيق بَك إلى جواره.

فقال توفيق بك:

- طوع أمرك أيّها السلطان.

قال السلطان:

- أَقْبِل توفيق بَك.

عندما دخل رئيس التشريفات القصر، قال السلطان لمن حوله:

- توفيق بَك عالم متديّن.

حيّا توفيق بَك السلطان في إجلال واحترام، وتابع السلطان حديثه:

- الناس أصناف شتّى: صنف جاهل خائن؛ لا يجوز أن نستخدم أمثالهم في أعمال الدولة، وصنف جاهل أميّ، لكنّه صادق؛ ويُستخدم هؤلاء في أعمال الدولة، لكن لا يُعهد إليهم بالمهامّ الجسام، وصنف عالم وَقِح؛ ورغم أنّ هؤلاء غير مرغوب فيهم، إلّا أنّهم يُستخدمون في أعمال الدولة، أمّا توفيق بَك، فيمتاز عن هؤلاء جميعًا؛ لأنّه عاقل، عالم، متديّن.

وعندما قال "هذه حقيقة وأنا لا أكذب".

قال من حوله:

- أستغفر الله يا مولانا.

نادى السلطان رئيس صنّاع الملابس صابيت بك في الجانب الآخر، وعندما قال السلطان:

- تكلّمْ صَابِيتْ بك عمّا تحدّثنا فيه أمسِ.

قال صَابِيتْ بك:

- سيّدي السلطان، أمرتم أمسِ أن يعود كلّ من دخلوا الخدمة في أندرون ثمّ عزلوا منها -لسبب ما- إلى مزاولة أعمالهم القديمة؛ فتزول ضائقتهم الماليّة وقلقهم.

أضاف السلطان:

- هؤلاء رجال في سنّ الشباب، تقلّدوا وظائفهم في خدمتنا، وفي خدمة الأمراء، وإذا كان لهم حقّ، فيجب أن يأخذوه.

قال من حول السلطان:

- لقد اتُّخذ اللازم.

أضاف السلطان:

- ناقشوا هذا الأمر مع المختصّين من الأندرونيّين.

خرج السلطان من القصر المجيديّ إلى بهو أندرون من المعبر بين المهجع في غرفة المؤنة ومهجع السلحدار متقدّمًا ببطء، بينما تبعته حاشيته حتى وصل إلى غرفة البردة النبويّة الشريفة، فتعلّقت عيناه فترة بإحدى قطع المرمر، ثمّ دخل الغرفة، في البداية دخل حجرة بها سبيل، ومنها انتقل إلى الحجرة الخاصّة، وعاد مرّة أخرى إلى القصر المجيديّ بعد طقوس استمرّت ما يقرب من ساعتين، وبينما علت البسمة وجوه الموظّفين معه، كان السلطان حزينًا جدًّا، صمت السلطان فترة، ثمّ توجّه إلى رئيس التشريفات بقوله:

- لي عندكم رغبة وأمنيّة.

فالتفتوا جميعًا إليه، وواصل السلطان كلامه المعبّق بالأحزان:

- بليت الستائر في غرفة البردة النبويّة الشريفة؛ فأرجو تجديدها، وقد عهدت بتقدير الكلفة إلى أمين الخزانة محمد رفيق بَك، وقدّر ما يلزم

بألفي ليرة ومئتين؛ إذ أسفت كلّ الأسف أثناء زيارتي إيّاها؛ فبينا تتألّق ملابسي البرّاقة، تُركت ستائر الغرفة سوداء حالكة، وما أنا إلا تابع مطيع لنبيّنا محمّد ﷺ؛ فما لي ارتضيت حالتي وحالتها يا سيّدي؟

غلّف الصمت الحجرة، وأطرق موظفو التشريفات، واغرورقت بالدموع عينا توفيق بَك رئيس التشريفات في القصر؛ فالحروب الدائمة، والانتصارات الكاذبة أنهكت وسحقت شجرة الدُّلْب العظيمة!

دبّر السلطان ألفي الليرة ومائتين، ثمّ واصل حديثه قائلًا:

- لأعطينّ هذا العمل خمسمائة ليرة، وحاولوا تدبير الباقي من الخزانة الخاصّة.

قال صابيت بَك:

- سيّدي السلطان، إنّ الأموال في الخزانة الخاصّة ملك لكم.

وأضاف توفيق بَك:

- في الخزانة الخاصّة أموال تكفي، إن شاء الله يتمّ هذا الأمر منها.

قالوا كل هذا لرفع معنويّات السلطان؛ فلا يؤكل في القصر العثمانيّ سوى وجبتي برغل يوميًّا، ولا مانع من الاحترام لذكرى سيّد المرسلين محمّد ﷺ وتقديرها.

زار السلطان رشاد بعد سنة البردة النبويّة الشريفة، ورأى الستائر الجديدة، لكنّ اعتلال صحّته لم يمنحه فرصة لإمعان النظر والتدقيق في الأمر جيّدًا، وعندما قال له رئيس التشريفات في القصر:

- سيّدي، لو أنّك استرحت هذا العام، ووكّلت أحد الأمراء!

رفض السلطان هذا الاقتراح قائلًا:

- هذه الاحتفالات ميراث عن أجدادي؛ فكيف لا أظهر احترامًا لرسول الله ﷺ؟

كان وجه السلطان يمتعض ألمًا مع كلّ رجّة أثناء السفر، سواءٌ أكانت في البحر أم في العربة التي تجرّها الخيل، كأنّ رمحًا ينغرس في جسده الضعيف؛ فيتأوّه مستبطئًا الوصول؛ فلم تكن تلك الزيارة مجرّد طقوس للبردة الشريفة فقط، بل كانت إرث الأجداد جيلًا جيلًا.

خرج السلطان بخطًى وئيدة من القصر المجيديّ، ودخل غرفة رئيس التشريفات، وبدأ الاحتفال عندما دخل دائرة البردة النبويّة الشريفة، وأحسّ في أعماق نفسه بالبخور المحروق في الحجرة، وبدأ الحفّاظ يتلون آيات الذكر الحكيم، وأثناء ذلك أُحضرت حافظة البردة النبويّة الشريفة وسط الحجرة، وأخرج السلطان بيده المرتعشة المفتاح الذهبيّ من جيبه، وفتح الصندوق، وبدأت التكبيرات، وتردّد على قبّة الحجرة المزخرفة بسورة الفتح أنين دولة عاجزة وسط حرب عظيمة يقول: "لا تضيّعوا ما تبقّى من الفتوحات".

فضّ السلطان الأنسجة الرقيقة كلّها واحدًا تلو الآخر حتى وصل إلى صندوق صغير فيه البردة النبويّة الشريفة ملفوفة في أربعين نسيجًا رقيقًا في الحافظة، وفي لحظة واحدة نسي السلطان سنّه، وتعالت الهمهمات في الغرفة مع فضّ كلّ لفّة نسيج على البردة النبويّة الشريفة!

ترجع هذه البردة النبويّة إلى الجدّ الأكبر السلطان يَاوُوزْ سليم، وهي بردة سيّد المرسلين ﷺ، ثمّ ظهر الصندوق الصغير مزيّنًا بالجواهر احترامًا وتبجيلًا لمفخرة الإنسانيّة ﷺ.

فتح السلطان الصندوق بالمفتاح الذهبيّ؛ فانتشرت الرائحة الزكيّة في أنحاء الحجرة، وكانت هذه المرّة الرابعة ينال فيها السلطان الهرِم هذا الشرف، وكان لون البردة النبويّة من الداخل ضاربًا إلى الصفرة، ومن الخارج أسود، وفي لحظة واحدة خيّم الحزن على الحجرة، وكان أسرع من الرائحة الجميلة المنبعثة من البردة النبويّة؛ إذ استشعرت القلوب المنكسرة المتشوّقة مرارة العيش دون النبيّ ﷺ؛ ارتجف الأحفاد حزنًا

على جدّهم فاتح القسطنطينيّة تحقيقًا لوعد النبيّ ﷺ، وتردّدت التنهّدات على ذلك الخزف الراجع إلى خمسة قرون خلت، وامتزجت دموع العين بالتكبير، وقبّل السلطان الهرم البردة النبويّة الممتدّة عبر الأحقاب والدهور، وأمسك الحافظة بيديه النحيلتين المرتجفتين، وسقطت دموع العثمانيّين على بردة سيّد المرسلين! وبدأت الزيارة؛ فجاء أوّلًا رجالات الدولة المنتظرون دون أيّة رغبة منهم في مغادرة المكان، أشار إليهم السلطان أن تقدّموا، وكان يقف على قدميه منذ أكثر من ساعة؛ فلم يستطع تحمّل ذلك؛ فانكبّ على الصندوق، واستند بإحدى يديه إلى حامل الصندوق.

كانت هذه المرّة الأولى يسقط فيها سلطان عثمانيّ بهذه الطريقة في حفل البردة النبويّة الشريفة، حاول النهوض على قدميه؛ إذ كان بدنه عليلًا هرمًا مثل الدولة العليّة، أسرع موظفو التشريفات قائلين:

- هلّا اكتفيت بهذا القدر يا سلطاننا، وعدت إلى القصر!

قال:

- لقد قصّرت في حقّ النبيّ ﷺ؛ فكيف لي الآن أن أرحل، وأزيد في تقصيري!

استمرّ الاحتفال، ودمعت عيناه حتى بلّت لحيته دون أن يبالي، كان يتحامل للوقوف على قدميه عند زيارته حريم القصر، وكانت زوجته السيّدة "مِهْرَنْكِيز *(Mihrengiz)* " تعرف من وجهه ما يكابده من ألم، بيد أنّها لم يُتح لها قول شيء، حاولوا إنهاء الاحتفال أسرع من المرّات السابقة، وتأبّطوا السلطان العجوز، وأركبوه عربة كانت تنتظره عند باب "كُولْخَانَهْ"، أخذت العربة طريقها بسرعة، حتى وصلت إلى ميناء "سِيرْكَجِي"، ثمّ ركب القارب السلطانيّ المنتظر عند رصيف الميناء، ورغم أنّ رياح البوسفور الباردة كسرت حرارة الصيف ولطّفتها، إلّا أنّ السلطان لم يشعر لا بحرارة الصيف، ولا بالرياح البوسفوريّة الباردة، وأخيرًا وصلوا إلى "بَشِيكْتَاشْ" واثبين فوق الأمواج، وبينما كان السلطان يصعد السُّلّم في قصر

"دُولْمَه بَاغْجَه" بخطًى وئيدة، أحسّ أنّ رُكبتيه تعانيان من تعب سنين؛ إذ إنّ تقصيره في التداوي جعلهما تتورّمان كثيرًا.

مرّت ثلاثة عشر يومًا مفعمة بالاضطراب والقلق، ثمّ شُوهدت عربات السلطنة في صباح ليلة القدر عند باب قصر "طُوبْ قَابِي" المطلّ على حديقة "كُولْخَانَهْ"، وفُتحت الأبواب على مصراعيها، فأحدثت صريراً وكأنها مريض يصارع ألما، يا ترى لمَ جاء السلطان إلى القصر؟

ذهبوا مباشرة إلى دائرة البردة النبويّة الشريفة، وأحاطوها بالستائر، وكان رئيس الكتّاب يساعد السلطان في الوضوء، ثمّ ذهب إلى المقعد المرمريّ أمام الغرفة، وسُمع وقع أقدام؛ إذ أقبل وحيد الدين الأخ الصغير للسلطان محمد رشاد إلى جواره، وبعد صمت طويل نظر السلطان إليه وإلى من ينتظرونه أمام باب السعادة، ورأى إخراج العرش الذهبيّ أمام الباب، فانحدرت من فمه كلمة:

- يا لقِصَر ما بين اعتلاء العرش واعتلاء المَغْسلة!

من أين له أن يعلم أنّه لن يرقد على هذه المغسلة المرمريّة، فسيموت في دار الغربة، ولن يُدفن في بورصة ولا في إسطنبول، مثل السلاطين العثمانيّين الآخرين؛ تُوفّي السلطان محمد رشاد، وتولّى بعده السلطان محمد وحيد الدين الخامس آخر سلطان يعتلي هذا العرش، وكانت إسطنبول تُقذف بالقنابل منذ أيّام، وحاولوا تنظيم طقوس مهيبة لتنصيب السلطان الجديد، غير أنّ الحزن خيّم على الأنحاء كلّها، وكان السلطان محمد رشاد آخر سلطان وارى الثرى جسده عند المقعد المرمريّ أمام البردة النبويّة الشريفة، ودّع قصر "طُوبْ قَابِي" آخر السلاطين، ولم تُقذف إسطنبول بالقنابل هذا اليوم احترامًا لطقوس التنصيب للسلطان الجديد؛ وهكذا انتظر كلا السلطانين محمد رشاد الرابع ووحيد الدين الخامس ابني السلطان عبد المجيد طقوسهما الخاصّة؛ الأوّل ينتظر طقوس جنازته، والأخير ينتظر طقوس اعتلائه العرش!









الصحراء والبحر

عندما رفع رأسه من السجود تفجّع قائلًا:

"هلمّ أيّها الخضر الرئيس، هلمّ يا أخي، أقبل فليس غيرك، أقبل وحرّرنا مثل الخضر"، ولا حول له ولا قوة سوى الانتظار دون أمل، كأنه أسد محصور منذ شهور في شرَك بهذه القلعة.

فكّر في الأيّام الخوالي، وتذكّر حملاتهم الأولى على الجزائر، وقتالهم الإسبان هناك، وقد قُدّر لهم أن يفتحوا الجزائر كلّها في فترة وجيزة، وكم كان المسلمون في الجزائر سعداء بمجيئهم! فهم لن يعطوا منتجاتهم للإسبان باسم الضريبة، ولن يعملوا لإشباع بطونهم في خدمتهم، ولعلّ الأهمّ من ذلك أنّهم سيمارسون بحرية شعائر دينهم المؤمنين به، وستكون أرواحهم، وأموالهم، وأعراضهم آمنة مصونة في كنف العثمانيّين، وسيبدؤون حياتهم من جديد برغد وسكينة في رحاب الخليفة.

أورُوج رَئِيس *(Oruç Reis)* لا يعرف التوقف والكسل؛ فقد وصلت قوّاته من الجزائر حتى حدود المغرب، وفتحوا تَلَمْسَان المدينة الساحليّة الكبيرة، وعاش الناس سنين وأعوامًا راضين عن الحياة، وكان السكّان الأصليّون يشعرون بالأمان على أنفسهم مع العثمانيّين، لكن كان من بينهم من خدعوهم كما هو الحال في المجتمعات كلّها، وهاجم الإسبان هذه المدينة الكبيرة بقوّة قوامها ستة وأربعون ألف جنديّ.

كان جيش الأعداء يتكّون من الإسبان وسكّان محليّين مخدوعين، ولم تُخِفْ وحدات العدوّ المسلّحة بالمدافع أُورُوجْ رَئِيسْ، رغم أنّ جنوده مسلّحون بالبندقيّات، وكانت القوّة تحت قيادته وحدة صغيرة مؤلّفة من البواسل المتطوعين العرب والبواسل القادمين من الأناضول.

وبدأ الدفاع عن مدينة تلمسان دون الاكتراث بضخامة القوّات لدى العدوّ أو بالقلّة العدديّة لقوّاته، غير أنّ كثرة قوّات العدوّ ووحشيّتها جعلتا من المستحيل حماية المدينة؛ وعلى الفور طلب المدد من سلطان المغرب ومن أخيه خضر رئيس في الجزائر، وهو المعروف في المستقبل باسم بَارْبَارُوسْ خير الدين باشا، أعظم قائد أسطول أنتجته البحارة العثمانيّة.

بدأت حرب الشوارع في لحظات باتت فيها حماية المدينة كلها أمرًا مستحيلًا، ورغم سقوط عشرات الشهداء من جنود البحريّة في كلّ شارع، إلّا أنّهم لم يستطيعوا حماية المدينة من الوقوع في أيدي الإسبان؛ فلجأ أُورُوجْ رَئِيسْ ومن معه من الجنود والمتطوّعين إلى قلعة تلمسان، وقلّل قوّاته كي يُتاح له الرجوع إلى القلعة، وبقي في القلعة خمس مئة جنديّ من جنود البحريّة.

راقبوا عدّة أشهر من قلعة تلمسان مياه البحر المتوسط شديدة الزرقة، وكم تمنّوا أن يروا في الأفق سفينة عثمانيّة! فلو رفرف العلم العثمانيّ على سارية سفينة شراعيّة وسط البحر، فسرعان ما سيولّي الإسبان الأدبار، وينتهي فورًا هذا الحصار، لكن ما من أحد! فكّر أُورُوجْ رَئِيسْ قائلًا في نفسه: "لا ريب أنّ أمرًا جللًا حلّ بأخي؛ فلم يستطع الحضور؛ لأنّ الخضر الرئيس يستطيع أن يصل بسرعة إلى أيّ مكان مثل ما يُحكَى عن الخضر، ولو كانت يداه تشخبان دمًا فسيأتي أيضًا، من يدري أيّ مانع أعاقه عن القدوم إلينا؟".

حلّ شهر رمضان، وكان الأغرب، إذ رزحوا تحت وطأة الحصار بعيدًا عن بلادهم مسيرة عدّة أشهر؛ صام أُورُوجْ رَئِيسْ ومن معه من جنود البحريّة، وأيًّا كان الأمر فقد نفدت مؤنهم؛ فكان خمس مئة جنديّ يتسحّرون ويفطرون بوجبة واحدة يوميًّا!

لم يقف الإسبان مكتوفي الأيدي؛ إذ كانوا يعلمون أنّ العثمانيّين لن يتركوا القلعة تحت أيّ ضغط مهما كلّفهم الأمر، وأنّ أجدى سبيل أن يعملوا على إثارة الشعب وتحريضه ضدّهم، فيوقعوهم بين المطرقة والسندان، ووصلوا بسهولة بالغة إلى أهدافهم؛ فقد نسي قوم من شعب تلمسان ذي الغالبيّة المسلمة أيامًا جميلة عاشوها في كنف الحكم العثمانيّ عبر السنين؛ فصدّقوا بسرعة وعود الإسبان الكاذبة، وتناسوا دفاع العثمانيّين عنهم، وظنّوا أن لا ملجأ من الإسبان إلّا إليهم! فكانت صلاة العيد هي الصلاة الأخيرة لجنود البحريّة العثمانيّين!

تمرّد الشعب، وهاجم العثمانيّين في القلعة؛ تحيّر أُورُوجْ رَئِيسْ؛ فما كان يتوقّع قطّ نكرانًا للمعروف على هذا النحو؛ فطائفة من الشعب تحارب مع الإسبان ضدّ حُماتهم، لم يبقَ ثمّة شيء يستطيع أن يفعله؛ فلا معنى إذًا لبقاء جنود البحريّة في هذه القلعة، فصاح قائلًا:

- فلنخرج دون أن نفقد شهداء أكثر.

اعترض بضعة جنود قائلين:

- أُورُوجْ رئيس، نتمنّى أن ننال شرف الشهادة في مكاننا هذا!

- أبنائي، تلك بغيتي أيضًا في يوم العيد المبارك، ولكنّ أرواحنا سنبذلها في سبيل الله لا غير، ولزام علينا أن نبذلها مقابل فائدة عظيمة، سنخرج من هذه القلعة، استمعوا إليّ، فالمدد الجديد من السفن الإسبانيّة قادم.

وأشار إلى السفن الصليبيّة البادية من بعيد قائلًا:

- أبنائي، القلعة مُحاصرة من النواحي كلّها؛ فاصمدوا حتى صلاة الفجر غدًا، وسنهاجمهم بغتة في هذا الوقت، وإذا انطلقتم فليكن من هنا.

كان الباب الرئيس للقلعة على وشْك الانهيار؛ إذ كانت قذائف المدافع الإسبانيّة تنفجر مُحدثة تصدّعات بالغة في جدران القلعة، وقد حمى العثمانيّون باب القلعة حتى النهاية، ولم يسمحوا باقتحامها، وبينما كانت طائفة منهم تحمي القلعة، كانت طائفة أخرى تستعدّ للهجوم، وقد توشّحوا بالسيوف والفؤوس، وأمسكوا بالسهام والرماح، وتدرّبوا مع من لم يُكلّفوا بالحراسة على هجوم صباح غد، استيقظ جنود البحريّة جميعًا والفجر؛ رفع الأذان أحد جنود الحراسة قبل انبلاج آفاق تلمسان؛ توضّؤوا، وأمَّهم أُورُوجْ رَئِيسْ، وبعد الصلاة تحرّى الأحوال من أبراج القلعة؛ فلا المدافع الإسبانية تطلق نيرانها، ولا ثمّة هجوم على باب القلعة!

- أبنائي، هذا يومكم، اصطفّوا جميعًا هنا في صفوف ثلاثيّة ولا تتفرّقوا، واقتلوا من يعترض طريقكم، اركضوا للأمام دائمًا، ولا تتوقّفوا، ولا تنظروا خلفكم، عليكم أن تفكّوا هذا الحصار، كان الله في عونكم جميعًا!

فُتح باب القلعة، وبدؤوا يمزّقون الحصار بسرعة فائقة، وأغاروا على الإسبان كالأسود الضارية، وكان معظمهم يغطّ في نوم عميق، وباءت جهودهم كلّها لاستجماع قواهم بالفشل بسبب ذعرهم من صيحات الحرّاس، وإذا كان الجنود العثمانيّون قد جشّموا الإسبان خسائر كبيرة في هجوم الصباح، فقد بقي منهم أربعون جنديًّا، ولم يتمكّن الجنود الإسبان من تعقّبهم إلّا بعد ساعتين، جُنّ مَارْكِيسِي القائد العامّ للإسبان ممّا نزل بهم على يد نخبة من الترك؛ فصاح:

- أريد أن أسأل أُورُوجْ رَئِيسْ عن خطّته، أحضروه إليّ حيًّا أو ميتًا، وإلّا فلا تعودوا.

انطلق الفرسان الإسبان يتعقّبون أُورُوجْ رَئِيسْ كي يقبضوا عليه، وتبعتهم طائفة من المتمرّدين من أجل الغنيمة، وكان أُورُوجْ رَئِيسْ يُبعد رجاله عن الساحل ما أمكنه ذلك، فوقف برهة، وأمر رجاله قائلًا:

- اطرحوا أيّ شيء معكم غير السلاح، واحتفظوا برداء واحد وبأسلحتكم فقط، وإن كان معكم سقايات أو أموال، فألقوها جميعًا.

لم يفهم الجنود المغزى من كلام أُورُوجْ رَئِيسْ، غير أنّهم انقادوا لقوله دون أدنى اعتراض؛ لأنّهم يثقون به ثقة تامّة، فبقيت السيوف والدروع في أيديهم، وليس عليهم سوى سهام وأقواس وملابس، وكان أُورُوجْ رَئِيسْ يعلم تمامًا رغبة المتعقّبين، وأنّ المتمردين سيتقاتلون على ما خلّفه العثمانيّون وراءهم، ولا ريب أنّ ذلك ما حدث تمامًا؛ إذ انشغل المجرمون بالرماح وسقايات الماء والملابس العثمانيّة، وغفلوا عن تعقّب العثمانيّين، ولم تخدع هذه الحيلة الجنود الإسبان؛ واستمرّوا في اقتفاء آثار العثمانيّين، وكان الدم النازف من الجرحى مرشدًا لهم، أدرك أُورُوجْ رَئِيسْ ذلك أيضًا، بيد أنّه لا يقبل أن يتخلّى عنهم؛ فالأخوّة الإيمانية توجب على المرء أن يموت من أجل أخيه؛ فمستحيل أن يتركه في الطريق، ورغم أن أُورُوجْ رَئِيسْ رجل هرِم إلا أنّه كان يركض بسرعة، وينصح جنوده أيضًا قائلًا:

- إيّاكم أن تقفوا يا شجعاني، أنا أعلم تمامًا معنى وقوعنا أسرى في أيدي الكفّار.

عندما تفوّه بهذه الكلمات، تذكّر سنوات الظلم والقهر عندما وقع أسيرًا في جزيرة رودس؛ إذ لم يسمح بمرور السفن الصليبيّة الماخرة في البحر الأسود كالصقر، وقفزت إلى عقله كمطرقة ثقيلة الذكريات

المرّة لأعوام عاشها دون أن يرى وجه النهار في السجون المظلمة الرطبة؛ ولـولا اقتـراحِ أحد الجنـود يومئذ أن يكـون أُورُوجْ من عمّـال التجديف في السفن بدلًا من مكثه في السجن بلا جدوى، لَهَلك في سجون رودس.

كان القائد الإسبانيّ يصرخ في جنوده قائلًا:

- أنـا أعـرف أُورُوجْ رَئِيسْ جيّـدًا، ولـو نجا من قبضتنا فسـيكيل لنا الصاع صاعين، هيّا أيّها الحمقى، أسرعوا بخيولكم.

كان القائـد الإسـبانيّ محقًّـا؛ فدولة سـلطانها القانونـي وتحكم ثلاث قارات لا بد أنها ستحاسـب الإسـبان على فعلتهم وتقتص منهم، فوجب في نظرهم القضاء تمامًا على أُورُوجْ رَئِيسْ.

اسـتمرّ تقـدّم أُورُوجْ رَئِيسْ ورجاله، وربّمـا كانت كلّ شـجيرة تهتزّ، وكلّ ورقـة صفـراء تسـقط أرضًـا، وكلّ غصـن يتفتّح إشـارة إلى شـرَك؛ فـكان مـن الضـروريّ مراعـاة هـذا كلّـه، ورغـم حلـول فصـل الخريف إلّا أنّهـم اصطلـوا بحـرّ إفريقية، وفـي النهاية وصل الشـجعان المتقدّمون فـي جفاف الربيع إلى شـاطئ نهـر "رِيُو صَـالَادُو *(Rio Salado)*" مُنْهَكِي القوى؛ إذ ركضوا ساعات متواصلة، حان وقت الظهيرة وبعضهم جرحى، لكنّهم جميعًا جياع، ورغم التعب والوهن لم تكتحل عيونهم بنوم؛ فعاتبوا قائدَهم أُورُوجْ قائلين:

- ألا يكفي هذا الجري يا أُورُوجْ رَئِيسْ!

فأجابهم:

- وصلنـا أيّها الشـجعان، هناك جسـر معلّق في مقدمـة هذا النهر، فلو عبرناه لَنجونا؛ ضاعفوا جهودكم.

ثـمّ ظهـر الأعداء خلفهم والجسـر المعلّـق أمامهـم، وكان العثمانيّون يتقدّمـون بأقصى ما لديهم من همّـة وجهد، وبقي الجرحى خلف القافلة،

عبر أُورُوجْ رَئِيسْ الجسر ومعه عشرون جنديًا، أما الآخرون فأثقلتهم الجراح، وطائفة منهم أخّرهم حملهم إخوتهم الجرحى على أكتافهم، بدأ أحد العابرين إلى الجانب الآخر في قطع حبال الجسر بسيفه؛ فإذا انهار الجسر، فلن يتمكّن الأعداء من العبور؛ فينجو العثمانيّون بهذه الطريقة!

أثناء ذلك، وصل جنود العدوّ دون الجسر على الشاطئ المقابل؛ فاستلّوا سيوفهم حانقين!

سُمع أنين جنديّ من الشاطئ الآخر قائلًا:

- يا رَئِيسْ لا تتركنا!

وقف أُورُوجْ رَئِيسْ فجأة وما هؤلاء الجنود إلّا أمانة الله عنده!

قال أحد الجنود:

- يجب علينا أن نهرب من هنا يا رئيس، ثمّ نأتي، ونثأر لإخوتنا؛ فقوّات العدوّ ضخمة.

زأر القائد أُورُوجْ مثل الأسد:

- كلّا، فلنعبر إلى الشاطئ الآخر!

ولما رأى الإسبان أُورُوجْ رئيس ورجاله الناجين من أيديهم، شعروا بالحيرة الممزوجة بالسعادة، وسُمع وقع قدمي أُورُوجْ رَئِيسْ، فقَبْل قليل كان يتردد في الأفق نداء لجنديّ عثمانيّ على الجسر المعلّق سمعته أذنه وجوارحه كلّها: "لا تتركنا يا أبي!".

وكان الجنديّ العثمانيّ قد تمكن منذ قليل من رؤية أُورُوجْ رَئِيسْ قادمًا إلى الجسر، وتقدَّم نحوه خطوة أو خطوتين، ثم علت وجهه بسمة، وهو يذوق شرف الشهادة بضربة بسيف من جنود الأعداء؛ إذ قتل الإسبان جنود البحريّة العثمانيّين جميعًا على الشاطئ، بينما كان أُورُوجْ رَئِيسْ يعبر الشاطئ الآخر هو ومن معه، ورأى أُورُوجْ رَئِيسْ بعينيه الدامعتين استشهاد آخر جنديّ من جنود البحريّة.

أشـهر العثمانيّون سـيوفهم وهم مُنْهَكو القوى بسـبب السـهد والجوع أيامًا، والجري في صحراء إفريقية ساعات متواصلة حتى إنّ قدرتهم على حمل أسلحتهم باتت منعدمة، ورغم هذا واجهوا العدوّ، ولم يخطر ببالهم الاستسلام أو طلب الأمان!

عندمـا انغـرس رمـح "طـون جارجيـه *(Don Garcia)*" قائد الإسـبان فـي صدر أسـد البحار أثناء المعركـة، اصطبغت ثيابه البيضـاء الفضفاضة بالدمـاء، وخـرّ صريعًـا مجـدّلًا مثل أسـد الله المقتول غيلة يـوم أُحد ﷺ؛ لم يـعِ في البداية ما حدث ظانًّا أنّ قدميه خدراوان، فسـقط على الأرض، ثمّ نهض كي يواصل القتال، لم يقوَ على ذلك، اسـتلّ طون جارجيه سـيفه بسعادة غامرة لإصابته هدفه، وتقدّم نحو أُورُوجْ رَئِيسْ، وطعنه في صدره.

حـاول أُورُوجْ رَئِيـسْ أن يتنفّـس، فلـم يسـتطـع؛ إذ تعـذّر عليـه عـدّة مرّات أن يلتقط أنفاسـه، مرّت حياته كلّها كشـريط أمام عينيه: النضال ضدّ السـفن المسيحيّة، الحروب ضدّ الإيطاليّين والإسبان الذين هاجموا سفن الحجّـاج، وقوعـه أسـيرًا في جزيـرة رودس، في جزر بحـر إيجه، تونس، هدايا السلطان يَاوُوزْ سليم إليه، تلمسان...

تـراءت لعينيـه حيـاة قضاهـا بيـن صحـارى إفريقيـة وأمـواج البحـر المتوسّـط... حيـاة بين البرّ والبحـر؛ بين الزرقة والصفـرة، وجاء من هذه الحياة أمام عينيه أخوان قضيا نحبهما شـهيدين قبل ذلك: الرئيسان إلياس وإسـحاق، وبقـي أخوه الوحيد خضـر رئيس في الجزائـر، وبينما يغمض عينيه المرّة الأخيرة، فصلت ضربة سيف جائرة رأسه عن جسده الشريف، سـقطت هامته البيضاء على الأرض مضرّجة بالدماء؛ حمل الإسبان رأسه إلى إسـبانيا رمزًا لانتصارهم، وبقي جسـده عند شاطئ النهر، كان أُورُوجْ رَئِيسْ من طلائع العثمانيّين مضرب الأمثال عبر الأحقاب والدهور، وكان استشهاده -رحمه الله- في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٥١٨م.

أما أخوه خضر فقد أصبح قائد الأسطول العثمانيّ ولُقّب بـ"خير الدين بَارْبَارُوسْ بَاشَا".

السنة ١٥٣٨م... تذكّر بَارْبَارُوسْ أخاه الكبير أوروج رئيس الذي استشهد قبل عشرين عاما كاملة وهو يلحق الهزيمة في براويز بالجيش الصليبي ذي الغالبيّة الإسبانيّة، المشتمل على البرتغاليّين، والبندقيّين، والمالطيّين، والإيطاليّين بقيادة "أندريه طوريا *(Andre Dorya)*".







فرسان العثمانيين في جبال "مقدونيا"

لا تتركني وحدي، يا رفيق الآخرة!

- أيّها العريف يوسف، اكتب:

"أحوالنا في هذه البقاع على ما يرام؛ إذ لا ينقصنا الزاد، غير أنّ غصّتنا الوحيدة تكمن في وطء أقدام العدوّ تراب أرضنا المباركة؛ ولا ريب أنّ الذين يريدون تعليق النواقيس على مآذننا سيجدوننا في مواجهتهم؛ فالله عظيم الشأن ونبينا محمّد ﷺ معنا بصفة دائمة في كلّ وقت وحين، فلا تنسنا في دعائك!"

- اكتـب يا آدم، ولو أنّك أنـت من يملي عليّ الكلام رويدًا رويدًا، لكتبت أفضل من هذا.

رفـع آدم الطَّارْسُوسِي قبّعته، وحكّ رأسه، وقال خجلًا:

- اعذرنـي –يـا رفيـق الآخرة–، فخطّـي مثل حقل قـرويّ لا يتبـع نظامًا معيّنًا، ولو أنّني كتبت الآن، ما اسـتطاع أحد أن يقرأ شـيئًا، أعلم أنّ هذا واجبي، غير أنّ خطّك جميل؛ فسامحني!

- أسـتغفر الله يـا أخي آدم، فما أسـعدني حين أقدّم لـك خيرًا ولو قليلًا!؛ هيّا، استمرّ.

- ماذا عن قريتنا، مَن الذين نالوا شرف الشهادة ومَن الذين صاروا غزاة فاتحين؛ هل من أخبار عن أحمد ابن العم ضياء، وهل ثمّة أخبار عن بَارْتَالْ حسن؟

- من هما؟

- همـا رفيقا عهد الطفولة، لم يفارق بعضنا بعضًا حتى الآن، أتيت أنا إلى مقدونيا عند إعلان الاستنفار، وذهب أحمد إلى "صَرِيكَامِيش"، وحسن إلى "جَانَقْ قَلْعَه".

- فلنكتب أيضًا ما بقي.

- هل تستطيعون جمـع المحصـول، وكيف هو، هل تسـتطيعون الاعتناء بأشجار الحديقة؟

- هل مِن رجل في القرية يا آدم؟

- والله -يا رفيق الآخرة- لم يُدفن رجل في مقابر قريتنا منذ عشـرة أعوام، وكانت أمي تقول: "الرجل الميّت أكثر تحمّلا للعمل الشاقّ من المرأة الحية".

وكنـت أفكّر كثيرًا قائلًا: "كيف تُجمـع المحاصيل في القرية من دون رجـال؟"، وكانـت جَدّتي تقـول أيضًـا: "لا محصول بلا رجـال"؛ كان الله في عونهم، لو لم يجمع المحصول لجاعوا في الشتاء".

- لن يجوعوا إن شاء الله، هل ثمّة شيء آخر أكتبه؟

- كانت قِينَالِي جُولْ عُشَرَاء؛ سلهم: هل ولدت؟

- مَن قِينَالِي جُولْ، زوجتك؟

- خَفِي حزن كان مرسومًا على وجه سليم الطَّرْسُوسِي؛ وقهقه.

- يـا ربِّ! يـا رفيق الآخـرة قِينَالِي جُولْ بقرتنا، قالـوا في الخطاب السابق: "هي عشراء"؛ فأسأل الآن عمّا جرى لها.

ضحـك الصديقـان كثيـرًا لهـذا الـكلام، وارتسـمت الابتسـامات علـى وجوههمـا في خنادق وهبهـا لهم أجدادهم فـي مقدونيا تبعد مئات الكيلومتـرات عـن أوطانهـم، وعندمـا رأى يوسـف الإسـطنبوليّ نظـرة

الفضول في عيون الرفاق في الخندق، قصّ عليهم الأمر؛ فضحكوا جميعًا على بقرة آدم.

وانتهى خطاب آدم بالدعاء والسلام، وسلّماه معًا مع خطاب العريف يوسف الإسطنبوليّ.

كانت هذه الخطابات رابطة بين طَرْسُوسْ وإسطنبول من هذا الخندق الضيّق الواقع في نُطُق جبال "طُومُورُوسْ *(Tomoros)*" في مقدونيا؛ كانت الخطابات تحمل مشاعر أمّة تؤمن بقدسيّة القرطاس والقلم؛ وكانت ثُلّة من الخطابات تحمل أخبارًا وابتسامات آمال رغم أن بعضها أُرسل بعد استشهاد المرسل إليهم!

كانوا معًا أيضًا في نوبة الحراسة ليلًا، قال آدم المكابد لصقيع يهبّ من الجبل على صدورهم:

- ما أشبه هذه الرياح برياح الشمال التي تهبّ من جبال طوروس! غير أنّ هذه باردة جدًّا؛ أوّاه!

وعندما رأى يوسف جَاوُوش شاردًا، قال:

- يا رفيقي، ما الأمر، ما يشغل تفكيرك كلّ هذا الشغل؟

- كلّا، لا شيء يا آدم، أظنّ أنّ الشوق قد أكل فؤادي.

- أرسلنا خطابًا اليوم؛ فلِمَ أنت قلق هكذا؟

- الحقيقة أنّي قلقت -عندما أرسلناه- على أمي العزيزة، تُرى، كيف حالها؟ الشتاء قادم، والرياح تهبّ من البوسفور على "أُوسْكُودَارْ" مثل الثلج، يا ترى، هل من فحم أو حطب توقده؟

- الله كريم، أليس من الواجب علينا أن ننجز المهمّة الملقاة على عاتقنا؟

- أنت مُحقّ.

- أوّاه! -يا صديقي- أنت إسطنبوليّ؛ فلتحدثني عن إسطنبول.

- ألم تذهب إلى إسطنبول قطّ؟

- أوّاه! ذهبت إلى هناك ومررت بها مرّة، ولا تُعدّ هذه رؤية.

- إسطنبول بلدٌ مختلف، وليس له في العالم نظير؛ هو جنّة الله في الأرض.

- ذهب جَدّنا إليها ليشتغل بالتجارة، وبقي هناك أسبوعين، وما فتئ يحكي عنها حتى نهاية عمره دون كلل أو ملل.

- وعن أيّ شيء كان أكثر حديثه؟

- كان يتحدّث عن مضيق البوسفور قائلًا: "هو أكبر من نهر "سَيْحَانْ"، وكان هناك أيضًا برج شامخ في البوغاز" -انتظر سأتذكر!- كان يقول: "اسمه 'برج قِيزْ' (برج البنت)"

ضحك يوسف.

- أوّاه!؛ لا رغبة لي في الضحك، ليس "بُرْجُ قيز" -يا رفيقي-، اسمه "برج كِيزْ".

- لا تؤاخذني سيّدي العريف؛ فأنا لا أستطيع أن أتحدّث مثلك.

قطع المسامرة انفجار في ظلام الليل، فغطّاهما التراب مُثار القنبلة الساقطة قريبًا من الخندق، قذيفة تلو قذيفة، وكانت القذيفة تمرّ فوق رؤوسهم، كأنّها عملاق ينثر التراب على الأنحاء في كّل وثبة أو خُطوة يخطوها؛ قهقه يوسف، وخرج من الخندق قائلًا:

- بدأ الحفل يا أصدقائي.

صاح آدم:

- سيّدي العريف، هل أصابك جنون؟ هل يخرج عاقل في وقت كهذا من الخندق؟

أجاب العريف يوسف قبل أن يبدأ القصف:

- انتظر وسترى الحفل يبدأ الآن!

جثم أمام الخندق، وأسلم أذنيه لأيّ صوت شارد أو وارد؛ وكانت القذائف لا تنفجر فورًا، بل بعد عشر ثوانٍ على الأقلّ؛ انتظر يوسف، مثل عُقاب يترقّب صيده، وعندما أحسّ بصوت، هُرع بسرعة هناك، وأمسك القذيفة وألقاها حيث أتت؛ سُمع انفجار وجلبة من خنادق العدوّ، ثمّ انهمرت القنابل تترى؛ فكان يوسف مثل وتر مشدود يقذف في كلّ صوت، ورغم عدم إطلاق يوسف القنبلة، سُمع دويّ انفجار آخر، وعندما رأى الأعداء أنّ قذائف يوسف لهم بالمرصاد، انتظروا برهة، ثمّ بدا لهم أن يعاودوا القصف، غير أنّ قنبلة انفجرت في خنادقهم، وخلال نصف ساعة لم يسمع صوت من خنادق العدوّ، وصل يوسف إلى خنادقهم زاحفًا، وعاد إلى خندقه بعتاد حربيّ كثير.

كانت بداية سبتمبر/أيلول، جفّت الأعشاب والأشجار والأنهار، غير أنّهم لم يفقدوا الأمل قطّ، ولن يفقدوه، كان آدم الطَّرْسُوسِي يتذكّر العنب الجافّ في سبتمبر/أيلول، وكان يوسف الإسطنبوليّ يتذكّر أوراق شجر الدُّلْب الجافّة في "جَامْلِيجَه".

وكان قادتهم يتحدّثون عن هجوم؛ فسوف يستولون على الهضبة المواجهة لهم، وتطوّع العريف يوسف لاستكشاف حال العدوّ، قال القائد ليوسف:

- هل أنت متأكّد؟ هذه مهمّة خطيرة.

- سيّدي القائد، علينا أن نزيّن هذه الهضبة بأزهار النصر.

تسلّق يوسف -صامتًا مثل النملة- الهضبة حيث السُّحُب ناصعة البياض مكوّمة في ذروتها، مثل أشجار القطن المتآلفة، كان يقظًا مثل العُقاب، دوّن ملاحظات عن أماكن العدوّ، وعرف مخازن عتاده الحربيّ، وحاول أن يفهم أحوال جنوده، ثمّ عاد إلى موضعه في جنح الليل، وقصّ على قائده ما رآه.

وعند الصباح جسّ أحد المدافع العثمانيّة نبض الهضبة، وقبل أن تشرق الشمس أردفتها قذائف المدفعيّة العثمانيّة بقذائف متلألئة مثل الفجر الكاذب، وكان صوت المدافع العثمانيّة يُسمع فوق الهضبة، وكان الجنود العثمانيّون في الجانب الآخر من الهضبة ينتظرون النصر، وكان العريف يوسف يبتهل إلى الله بالدعاء أن تصيب القذائف المنطلقة من المدافع العثمانيّة نقاطًا عيّنها.

لم تتأخّر قذائف العدوّ عن الجيش العثمانيّ، إلا أنّ الأخير كان يقذفهم بسهولة لحالة هلع وارتباك تملّكتهم، فكانوا يلوذون بالفرار إلى جبال مقدونيا مع كلّ قذيفة يطلقونها كأنهم مساجين ضاقت بهم الدنيا، ليهربوا وينجوا من الخندق.

ظلّل الدخان الكثيف خنادق العدوّ، وهجم الجنود العثمانيّون قائلين: "لقد حان الوقت"، وكانت الرصاصات الضوئيّة تُقذَف من مواضع العدوّ تحت الدخان، توجّه العريف يوسف وأصدقاؤه إلى الهضبة تحت تغطية رصاصات أنار ضوؤها وجوههم، وقطعوا الأسلاك الشائكة المعترضة طريقهم بالمقصّ، وكانوا يريدون القضاء على أعدائهم مغتصبي أوطانهم، وأزالوا تلك الأسلاك، وصاح العريف يوسف قائلًا:

- إخوتي، الحمد لله لسنا عاجزين حتى نترك العدوّ الخائن يضربنا، فلِزام علينا قبل أيّ شيء أن نصل إلى مواضع تمركزهم في الهضبة.

كانوا في حالة هيجان عصبيّ، مثل طائر حديث عهد بالطيران كي يزيلوا الأسلاك الشائكة الصدئة التي أدمت أياديهم، وقد تضافرت معنويّات عاشوها؛ فلم تظهر أمامهم أيّ عوائق حسيّة؛ وانقطعت الأسلاك الشائكة تحت الهضبة والقصف المدفعيّ فوق الهضبة، ونهض الجيش العثمانيّ للهجوم بأمر من الملازم طلعت أفندي، وكان يُردّد صوت واحد: "الله أكبر، الله أكبر".

كان ما يعترضهم من أحجار وصخور وأشواك يُسحق تحت أحذيتهم عالية الساق المتمرّسة على المشي، وعندما انعكست الأضواء الأولى للشمس من حراب البندقيّات العثمانيّة الواصلة للهضبة، كانت انطلاقات البواسل العثمانيّين تُحدِث في مواضع العدوّ غبارًا كثيفًا شبيهًا بالدخان؛ واشتبك الطرفان في عراك عنيف لا فرق فيه بين النصر أو الشهادة، وفي هذه الأثناء سمع جنود أتوا راكضين أسفل الهضبة صوتًا يتردّد أعلاها قائلًا:

- استولينا على الهضبة.

كان الصوت المسموع بقوّة في بداية الأمر قد خفت تدريجيًّا.

- حررنا الهضبة، لله الحمد والشكر!

فهموا أن الصوت للعريف يوسف، فلا أحد مثله ذو صوت جهير واضح مفهوم في الكتيبة، ولكن لأيّ سبب يضعف صوته تدريجيًّا؟

رأى القادمون نحو الهضبة العريف يوسف مرّة واحدة، وكان يركض إلى الموت تحت وطأة جلبة لمدافع العدوّ المثيرة للرعب والفزع،

وقذائف البندقيّات الرشّاشة وبندقيّات الجنود المشاة المنهمرة مثل المطر دون أن يكترث بشيء ألبتّة، وكان ينظر عن يمينه وعن يساره مثل من يبحث عن أمتعته المفقودة، ثمّ يطلق صيحة الفرح قائلًا: "وجدت ضالتي، أجل وجدتها"، وكان يعيد قذائف العدوّ إليه، مثلما كان يفعل في كلّ وقت وحين، غير أنّ مدفعًا للعدوّ قطع هذه الصيحة التي تأوّبت في الجبال المواجهة؛ سقطت بسرعة قذيفة بالقرب منه، وفتحت حفرة كبيرة إلى حد ما بعثرت التراب والأحجار حولها؛ فهل كانت هذه الحفرة قبر العريف يوسف؟

بدأ أصدقاؤه يُهرعون بكلّ ما لديهم من قوّة نحو الهضبة قلقين من أن يفقدوا يوسف الإسطنبوليّ، ولم تصدر عن العريف يوسف أيّة بادرة ألبتّة تدلّ على حياته، وكان مكانه لا يزال مرمى لقذائف العدوّ، فكان من ينوي المغامرة بالذهاب إلى هناك، يتوقّع استشهاد العريف يوسف؛ لم يسمح لهم القائد بالذهاب إلى هناك.

أنسى ألم فقدان العريف يوسف كلّ شيء حتى فرحة السيطرة على الهضبة، وجدت العبرات طريقها الدقيق في الوجوه المعفّرة بالغبار والتراب، غير أنّ آدم الطَّرْسُوسِي كان ينظر أمامه متمتمًا بالأدعية؛ إذ كان ينتظر مجيء العريف يوسف، بينما كان الملازم طلعت أفندي يعمل على رفع الروح المعنويّة للجنود قائلًا:

- جنودي البواسل، هذا ميدان الحرب، لو أنّنا مِتنا ههنا، لعُددنا عند الله شهداء، ولو أنّنا نجونا من الموت، لصرنا في سبيل الله مجاهدين فاتحين؛ أدرك العريف يوسف هذا المقام الرفيع قبلنا.

عندما كان الملازم طلعت يتحدّث كان آدم الطَّرْسُوسِي يئنّ ويتذمّر قائلًا:

- هل يجوز أن تتركني وتذهب دوني يا رفيق الآخرة؟

وفي تلك الأثناء سُمع صوت الحارس:

- انظروا؛ إنّه العريف يوسف!

وعندما أقبل العريف يوسف نحوهم حاملًا مدفعًا رشّاشًا ضخمًا على كتفه نافضًا التراب والغبار عنه، قال للطَّرْسُوسِي:

- كيف أذهب وأتركك يا رفيق الآخرة؟







أحد خنادق العثمانيين في جبهة "غَالِيجْيَا"

محمد فخر الدين الأُورْفويّ

كأنّ حلـول الليـل يحجـب جلبـة الحـرب المندلعـة فـي "غَالِيجْيَـا"؛ إذ أرخـى الليـل سـدوله عليها، ولـم يبقَ ثمّة أثر مـن دويّ نيران الرصاص وانفجار القنابل وصفير القذائف نهارًا.

رفـع العريـف الأورفـويّ فخـر الديـن بـن مصطفـى مـن مرتبـات المجموعـة الأولى بفرقة البندقيّات الرشّاشـة الثالثة والستّين رفـع أصبعه المنتظر منذ الصباح على زناد السـلاح؛ فقد كانت عينه تنتظر منذ سـاعات جنديًّـا روسـيًّا فـي الأفق، حـلّ الظـلام، وأوقف الـروس الهجـوم أيضًا؛ نبّه مَن بجواره قائلًا:

- بـلال، سأسـتريح قليلًا، لا تغمض عينيك؛ فالذئـب ينام والعدو لا ينام.

حـرّك رقبته بيده يمينًا ويسـارًا؛ ففرقعت، وشـبّك أصابعه خلف عنقه، واسترخى جانب سلاحه، كان الجنود أثناء الاستراحة في الخندق يتحدّثون عن بلدتهم، وعمّا ستؤول إليه الحرب، وكيف سيعودون إلى بلادهم، قفز سليم الطَّارَسُوسِي قائلًا:

- إذا كانت الدولة العليّة قد جاءت بنا إلى هنا، فلا ريب أنّها تعرف كيف تعيدنا، فلا ينبغي أن نفكّر في شيء غير العمل المنوط بنا.

- أنـت محقّ، فثمّة مقولة من تراثنا توافق هذا المقام: "من لا يزرع لا يحصد، ومن لا يتمنّ لا تتحقّق أمانيه".

انضم يوسف الكُومُولْجِينِي إلى هذه المسامرة قائلًا:

- هذا الروسيّ لا يذهب إلّا إذا طُرد، ولا يرتدع إلا إذا ضُرب.

دار الحديث فترة عن العريف فخر الدين.

- أوّاه، لو تعرف كيف جعل عريفنا فخر الدين الجنديّ الروسيّ يتقيّأ دمًا أمسِ!

- أنا أيضًا رأيت، لقد صرع تحت كلّ شجرة في الغابة روسيًّا.

- لو كان معنا عشرة، مثل العريف فخر الدين الحاذق التصويب، لأصبحت ظهورنا محميّة.

كان العريف فخر الدين يسمع حديثهم، إلّا أنّه كان شاردًا؛ أخذته خيالاته، مثل سفينة حملته إلى عائلته في مدينة "أُورْفَا"؛ فتخيّل زوجته حوّاء، ابنه نجمي، أمّه؛ يا ترى، كيف حالهم الآن؟ أفي ضيق من العيش هم أم في سعة، تراءت له نظرات زوجته أثناء توديعها إيّاه؛ اغرورقت عيناه بالدموع، أخفى عينيه، يا ترى، ماذا يفعل نجمي، هل يقود الخيل الخشبيّ -صُنع والده- إلى الأعداء؟ فكلما عُدْتُ إلى البيت كان يُهرع إلى الباب، ويشير من في البيت بقوله:

- أبي، جاء أبي!

ثمّ يستقرّ في حِضن أبيه، سائلًا:

- ماذا أحضرت لي يا أبتاه؟

كان يقبل الهدية وإن كانت صغيرة جدًّا ويلتفّ حول عنق أبيه بذراعيه الصغيرتين.

وفي إحدى المرّات كان قارعو الطبول يمشون في الشوارع، وكانت استعدادات الجنود لإعلان الجهاد في سبيل الله قد بدأت، وكان نجمي في حِضن أبيه يتمايل مثل الدراويش وينطق بكلمات كبيرة:

- أبتاه، أعلن سلطاننا الجهاد؛ لذا يعزف قارعو الطبول، وسيذهب الناس إلى الجنديّة، وسيكونون فاتحين أو شهداء يا والدي العزيز، هل ستكون أيضًا مثل هؤلاء: إمّا فاتحًا وإمّا شهيدًا؟

قبّل خديه الأحمرين المكتنزين وشعره المموّج، وأجاب عن سؤال العينين النجلاوين الحوراوين ذواتي الأهداب الطويلة:

- أجل، أنا أيضًا سأكون فاتحًا أو شهيدًا.

شمّ ابنه طويلًا طويلًا مردفًا:

- وسيكون والد محمد شهيدًا أو فاتحًا، وجارنا المقابل لنا العمّ أحمد أيضًا.

ولو أنّ نجمي سُئل: ماذا تعنى الشهادة أو الغزو، فلن يعرف؛ إذ تعلّم هذه الكلمات من قارعي الطبول، وربّما يعود الفاتح إلى البيت بلا قدم أو ذراع، ويعيش أولاد الشهيد طوال عمرهم بلا أب، فيفقدون عماد البيت، ويبقى أيضًا الموقد بلا دخان، وسيدرك هذا جيّدًا أبناء الفقيد نجم الدين، وكان العريف فخر الدين يعلم أيضًا ماذا يكون حال أسرة بلا أب، ويعلم صعوبة تنشئتها؛ فما أصعب أن يُوقد موقد دون رَجُل! وكان يتذكّر والده، وحينئذٍ تمثّل في عينيه رجل فارع الطول يلبس حذاء طويلًا؛ فهو رجل يكسر الحطب أمام البيت ويعصر الحجر ليخرج منه الماء، ويجتهد دائمًا دون أن يعرف التعب والسأم، ومنديله في طوق قميصه لا يجفّ من العرق، وكانت أمّه تحكي له عن أبيه في ليالي الشتاء الطويلة في حجرة صغيرة تستنير وتصطلي بجُذا الموقد، كان يسمع من أمّه قولها:

- كان أبوك يمكث أيّامًا كثيرة دون طعام أثناء محاصرة بلادنا، وأثناء الخروج من هذا الحصار جُرح قائد الجيش العثمانيّ غازي عثمانيّ باشا، وقد استُشهد والدك برصاصة غادرة بعد أن حمل الباشا عشرات الأمتار على ظهره لينقذه.

كانت تحكي هذه الحكاية مكابِدة صيحة ألم المرأة الأناضوليّة، وربّما كانت تحترق روحها أكثر من أيّة مرّة تحكي فيها هذه الحكاية، وكانت تشتاق أيضًا إلى عماد بيتها، ولا تريد أن يرى ابنها دموع عينيها، وكانت تحكي مداعبة شعر فخر الدين، وتهدهده لينام، وتقول أيضًا:

- لتثأر لأبيك من الروس يا ولدي، عندما تُتاح لك الفرصة.

يا ترى، بماذا كانت تشعر الأم عندما تهتزّ يداها المرتعشتان شيخوخة -وهي أمانة أبيه عنده-، ذهب فخر الدين الآن من مدينة "أُورْفَا" إلى "غَالِيجْيَا" تاركًا إيّاها أمانة لدى ابنه نجمي ابن الخامسة، انزوى عن أطيافه، وإذا كان قد ذهب بخياله في لحظة واحدة إلى "أُورْفَا"، فقد عاد مرّة أخرى إلى "غَالِيجْيَا".

ويعلم الله كم من كيلومترات تبتعد "غَالِيجْيَا" عن "أُورْفَا"، وقد تذكّر مسيرته بضعة أشهر حتى وصوله هناك، وقد أتوا إلى هذه الأراضي لمساعدة الحلفاء المشتبكين مع الروس، وكانت هذه الأراضي جزءًا من الدولة العثمانيّة حتى أمس القريب، وتذكّر أيّامًا ساق فيها أجدادهم الخيل في أوربّة، وفكّر في معركة "مُوهَاجْ"، وتذكّر حصار "وِيَانَا"، وصاح قائلًا:

- أيّها التركيّ، كم رويت بدمائك هذا الثرى!

لم يخبر فخر الدين أحدًا عن خيالاته، مدّ رجليه، ولمّا أسند رأسه إلى البندقيّة الرشّاشة، سمعه ملازم شابّ بجواره يقول:

- يا تُرى يا نجمي، هل اشتقت إلى أبيك مبعوثك إلى هنا ليكون فاتحًا أو شهيدًا؟

كان رفع الرأس في الخندق أمرًا خطيرًا؛ فانتقلوا لخطّ النار خلف الخندق زاحفين، ساعد العريف فخر الدين الملازم الشابّ، وحاول كلاهما الاصطلاء عند رأس النار؛ إذ كان الثلج ينهمر منذ أسبوعين في "غَالِيجْيَا"،

وعندمـا كان الجليد يظهر، كان العريف فخر الدين -المعتاد على الحرارة في "أُوزْفَا"-، يشـعر بالبرد، مثل باقي الجنود الأناضوليّين الآخرين، وكان سـماع صوت النار ومشاهدة لهيبها الضارب إلى اللون البرتقاليّ يشعرهم بالـدفء، وكان الملازم الشـابّ إسـماعيل أفندي إسـطنبوليًّا، وكلّما رأى العريـف فخـر الدين، ورد على عقله أجداد قـرأ عنهم في دروس تاريخيّة كانت تُحيي في عينيه أعلامًا مثل السلطان سليمان القانونيّ، وقَرَهْ مصطفى باشا المَرْزِيفُونِي؛ فلم يتحمّل في هذا اليوم وقال:

- أنت تتحدّث قليلًا جدًّا أيّها العريف فخر الدين؛ فهل ثمّة شـيء يغضبك منّا؟

- معاذ الله سيّدي القائد؛ فهذا طبعي؛ فأنا سكّيت.

- ذهبت منذ أيّام في عوالم أخرى؛ فربّما يكون بدنك هنا، غير أنّنا لا نعرف إلى أين ذهبت روحك؟

- سـيّدي القائـد، الـروح ليسـت مِلـك البـدن؛ كنـت أتـردّد على بلدتي أحيانًا.

لـم يُلِحَّ إسـماعيل أفندي؛ لأنّـه يعلم أنّ العريف فخر الدين سِـكّيت، كانـت هنـاك غرفـة نـوم مبعثرة فـي الجبهة الخلفيّـة من الخنـدق يتناوب عليهـا الحـرّاس، وكانـت الراحـة أربـع سـاعات، وكانـوا يتوضـؤون من إناء يستعملونه في إذابة الثلج، وكانوا يتوضؤون بالماء البارد في البرد القارس، وكان البخار يتصاعد من أذرعهم، وبعد الوضوء يستدفئون قليلًا أمام النار، ويملؤون الصهاريج الفارغة بالثلج مرّة أخرى، ويضعونها قريبًا من النار، وأثناء صلاة العشاء بدأت المدفعيّة الروسيّة تطلق قذائفها ممزّقة صمـت الليل؛ كانت النيران المتصاعدة في سـواد الليل تذكّرهم بالنجوم، والفـرق الوحيـد أنّ هذه الشُّـهُب تمرّ من مناطق شـديدة القرب، ولو أنّها أصابت خندقهم، لقتلتهم عن بكرة أبيهم بما لديها من قوّة تخريبيّة.

وضع العريف فخر الدين رأسه على الوسادة المحشوّة تبنًا، وعندما سحب معطفه عليه، قال:

- أوّاه يا سيّدي القائد، لو كان هؤلاء الروس عقلاء ولو قليلًا، لرقدوا، وناموا، ولم يلهوا بنيران المدفع في جُنح الليل.

انقلب على جانبه الأيمن، وغطّ فورًا في نوم عميق!

كانت نيران المدافع تستمرّ بصفة متقطّعة طوال ساعات الليل، وكانت معظم الضربات بعيدة عن إصابة أهدافها، وأحيانًا ترد قذيفة شاردة لا يُعلم من أين أتت؛ لتحطّم آمال الجنديّ العثمانيّ.

استيقظوا من النوم بعد أربع ساعات، وكان الحرّاس على رأس البندقيّات الرشّاشة، وكانوا يضعون في اعتبارهم التولّي -بأريحيّة من جديد- لأعمال تجشّموها منذ أشهر، وتحمّل مسؤوليّة أصدقائهم، حان وقت صلاة الصبح، تبدلّت الحراسات، توضأ العريف فخر الدين مع الملازم إسماعيل، ذهب العريف خلف الخندق كي يملأ الصهريج الفارغ بالثلج، وأثناء ذلك حدثت جلبة كبيرة وتناثر الخندق بانفجار عنيف لقذيفة مدفعيّة شاردة، وجد العريف فخر الدين نفسه مُلقى وسط الثلوج بسبب الانفجار الشديد، اتّجه نحو الخندق راكضًا، وكان أصدقاؤه بائسين؛ نال معظمهم شرف الشهادة هناك: أحمد الأضنيّ، سليم الطَّارْسُوسِي، يوسف الكُومُولْجِنَوِي؛ بحثت عيناه عن قائده، عثر على الملازم الشابّ تحت الأنقاض الخشبيّة للخندق، وقد نال الملازم إسماعيل البَشِيكْتَاشِي أيضًا شرف الشهادة؛ عثر فخر الدين على بندقيّته بين الأنقاض، صاح قائلًا:

- سأنتقم منك، أيّها العدوّ الملعون!

خرج بسرعة من الخندق راكضًا صوب المواقع الروسيّة، وكان لا يعلم ماذا سيفعل، ولم يرد شيء على عقله سوى أن ينتقم من هذه الوقاحة الروسيّة، وصل مكان الحرّاس عند أقرب حدّ فاصل بين الطرفين؛ انقطعت السُّبُل، انقطعت الآثار، خيّم السكون على الجبال، لكنّ الريح عاصفة، ريح بها نسائم الموت، تجمّدت الأشجار بما عليها من أوراق يابسة، سكن كلّ شيء واحتبست الأنفاس في لجّة الظلمة البيضاء!

عبر نقطة الحراسة مواصلًا السير في هذه الظلمة الحالكة؛ عبر الأدغال والوديان، وتوارى تحت شجرة، وليس حوله أيّ صوت؛ فلا يُسمع سوى حفيف الوادي، وكان الصمت المخيف يفسد اللحن العذب المنهمر من الوادي سواءٌ من الثلوج أم من المنحدرات الواسعة، ثمّ قرّر أن يمشي خطًى قليلة عبر الماء، ابتلّت قدماه، غير أنّه لم يلحظ هذا، واستلقى على الثلج، وكان الحريق المضرم داخله يحول دون شعوره بالبرد، لم يُسمع ثمّة صوت، ولم يرَ جنديًّا روسيًّا واحدًا؛ فكّر قائلًا: "لزام عليّ أن أتحكّم في الميدان من مكان مرتفع"؛ حمل بندقيّته على ظهره، وتسلّق -بصمت- الصخور في جانب الغابة، صعد الهضبة بمشقّة بالغة، وها هو الآن يرى ما حوله بشكل أفضل، لم تشرق الشمس، ولمح ضوءًا خافتًا من بعيد، وفكّر في الذهاب هناك، تسلّل بين الصخور، اقترب من موضع الضوء، ويبدو أنّ هذا المكان إحدى نقاط المراقبة أو من الخنادق الروسيّة أو القنّاصة، أمّا خندق القناصة، فكان من المستحيل أن ينجو من نيران ستنهمر بعد قليل من السلاح الآليّ.

فكّر قائلًا: "يجب على الأقلّ أن أنال منهم قبل أن أنال الشهادة"؛ اقترب كثيرًا من النقطة المُضاءة، خلع حذاءه وعلّقه في حزامه، وتحرّى الصمت، اقترب من مكان الضوء: عبارة عن مغارة صغيرة أثناء الصخور، لم يكن يشبه

خندق القنّاصة؛ التفّ خلفه، وفي الحقيقة كانت نقطة مراقبة، وكانت وجهة المغـارة مغلقة بالشُّـجَيرات، وكان فيها ضابط روسـيّ، يتحـدّث بالهاتف؛ فكّـر العريـف فخر الدين قائلًا: "يجب أن يكون هذا قائد سـلاح المدفعيّة؛ اقشعرّ جسده؛ أخرج القنبلة اليدويّة في خصره قائلًا: "يجب عليّ أن أنسف هـذا العـدو هو وخندقه هـذا، وأطرحه أرضًـا"، ثمّ لم تعجبه هـذه الخِطّة؛ أراد أن يواجهـه رجـلًا لرجل، ثمّ خطرت على باله فكرة شـديدة الإحكام، وهـي أن يقيّـده ويحمله إلى موقعنـا، ويحصلوا منه علـى المعلومات، بدأ فورًا تعقّب أسـلاك الهاتف؛ فتعقب الأسـلاك حتى مئتي متر، والآن يتوجّه مباشـرة إلى خندقهم، وأخرج حُزمة شـرائط بيضاء أخذها معه عندما خرج للاستطلاع قبل يومين، وربط أسلاك الهاتف؛ فأصبح على دراية تامّة بمكان أسـلاك الهاتف، عاد فورًا إلى موضعه، قصّ ما حدث لقائده، سُـحب خطّ أسـلاك أشـار إليه العريف فخر الديـن، وبدؤوا في التنصّـت على الروس؛ فكانوا على دراية تامّة بتحرّكات الروس كلّها القريبة والبعيدة.

فُهـم جيّـدًا جديّـة الأمر مـن معلومـات عرفهـا الحلفاء النمسـاويّون -إذ ترجموا المحادثات الروسـيّة-؛ كان الروس يستعدّون في اليوم التالي لهجوم شـامل، ونُقل خبر إلى الوحدات كلّها مفاده: "سـيتمّ صدّ الهجوم الروسـيّ، ثـمّ عليكـم القيام بهجوم مضـادّ"، وعندما سـمـع العريف فخر الديـن ذلك، كاد قلبه يطير فرحًا، واسـتعدّ منتشـيًا نشـوة أطفـال ينتظرون العيد يوم عرفة، وعندما حلّ المساء، بسط يديه متضرّعًا، كلّا، ليست يداه فقط؛ إذ توجّه بقلبه كلّه إلى خالقه: "تعلم -يا ربِّ- أنّ أعظم أمنية عندي أن أمـوت فـي سـبيلك، غير أنّـي -يا ناصـري- لا أريد أن أكون شـهيدًا في هجوم غدٍ؛ فيا ربِّ، لا تقبضني إليك قبل أن تجعل لي نصيبًا من الثأر لأبي وأصدقائي الشهداء!"

هل مَن كان يدعو بهذه الطريقة يخاف من الموت، كلّا، كان يقول: "الفأر المولود في الرحى لا يخاف من رعد السماء"؛ شعوره الوحيد أنّه لا يريد الموت دون أن يشفي غليله بالانتقام لأبيه وللشهداء.

وعندما بدأ بزوغ النهار، بدأ الروس الهجوم، كانوا يحاولون إرباك الترك والألمان والنمساويّين بهجوم مفاجئ، غير أنّ الأحداث لم تكن قطّ كما كانوا يأملون، وكان دفاع العريف فخر الدين بالبندقيّة الآليّة أعلى التل قد أحدث خللًا بالهجوم الروسيّ، وقتئذٍ استشهد الصديقان في جانبي خندق فخر الدين، وعندما رأى أنّه نجا من الموت، أدرك أنّ الله -تعالى- استجاب دعاءه.

بدأ الهجوم المضادّ بعد سحق الهجوم الروسيّ، وكان العريف فخر الدين على أحد المدافع الرشّاشة وقد انتهت خدمته هنا، وسيُحال للقوّات الاحتياطيّة، غير أنّه سيتقدّم إلى الصفوف الأماميّة، إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ حزن العريف فخر الدين قائلًا:

- هل أبقى هنا، كالنساء وإخوتي يحاربون الروس.

ورد على خاطره النساء الأناضوليّات المتطوّعات في المستشفيات المقامة للجنود في جبهات القتال، والنساء حوائك ملابس الجنود، أفلا يكون مثلهنّ؟

كان يرى الأنحاء كلّها من الهضبة حيث عَسْكَرَ، كانت عيناه على الوحدات العثمانية المناهضة للهجوم، وكانت وحدته ستتحرّك للانضمام إلى الوحدة الأخرى الزاحفة؛ أخذ الروس مواقعهم وبدؤوا يطلقون القذائف بغزارة، وكان من الواجب على العريف فخر الدين

أن يفعـل شـيئًا؛ فحدّد مكان انتشـار الـروس، وكان يأخذ معـه كلّ بندقية يجدهـا أمامـه، علّـق على كتفه مـا اسـتطاع أن يحمله، واحتضـن الباقي، ودار خلـف الموقـع الروسـيّ، وضـع البندقيّـات على الرُّبا، ثمّ بدأ إطلاق النار على المواقـع الروسـيّة من أماكن مختلفة حتى إنّ الروس ظنّوا أنهم أُحيـط بهم، وبدؤوا هذه المرة في إغـراق مكان العريف فخر الدين بوابل من الرصاص، وكانت القذائف تنهمر دون توقّف، وكلّما سنحت الفرصة للعريف فخر الدين، زوّد بندقيّته وواجههم.

نجـت الوحـدة العثمانية مـن قذائف الـروس، وانضمّت إلـى الوحدة الأخـرى، ونهضـوا جميعًـا للهجـوم، وقضـوا علـى الـروس جميعًـا في مواقعهم؛ وعاد الهجوم الروسيّ وبالًا على الروس، وبعد بضـع ساعات تفقّد العريف فخر الدين -فارس البندقيّة الرشّاشة الملازمة له في الخندق كصاحبـه- الأجـواء حولـه بهدوء تامّ؛ امتـلأ الوادي بجثـث الروس، قدم الروس لجمـع الجثث والجرحى، ولاحظ الجاويش أحمد الصَامْسُـونِيّ بجواره أنّه قد وجّه بندقيّته إلى الروس، فأخذها فورًا قائلًا:

- سيّدي العريف، ماذا تفعل؟

- اتركني، فلأقضينّ عليهم.

- كلّا، فخـر الديـن، ليـس هـذا مـن خلـق الإسـلام، اتركهـم؛ فليجمعوا جرحاهم.

بعد شـهور سـمُـع صوت البريد العسـكريّ في طُرُق "أُوزفَـا" المعبّدة بالحجـارة، وظهر جنديّ يسـأل أطفـالًا يلعبون بين البيـوت المبنيّة باللَّبِن عـن عنـوانٍ مـا لم يعرفـه الأطفـال؛ فسـأل شـيخًا خارجًا من المسـجد، ثـمّ وقـف أمام بيت العريف فخر الديـن، ودقّ بِمِقرعة الباب، فتح نجمي

الباب على مصراعيه، فسقط شعاع الشمس على وجهه؛ لم يستطع رؤية القادم، وعندما سأله الجنديّ:

- هل في البيت من هو أكبر منك؟

ظهرت أمّه جانب الباب، غطّت وجهها بحجابها بإحدى يديها، وتناولت الخطاب بالأخرى، وفتحته، وكانت فيه رسالة:

"من الجيش السلطانيّ العثمانيّ

إلى عائلة العريف محمد بن مصطفى فخر الدين قائد الطاقم الأوّل وحدة المدفع الرشّاش الثالثة والستّين: قد سقط العريف فخر الدين شهيدًا في السابع والعشرين من شهر أكتوبر/تشرين الأوّل الموافق ١٣٣٢م أثناء عمليّة استكشاف خاصّة عند تنفيذ الاستعدادات للهجوم في جبهة "غَاليجْيَا"، وقد دُفن في هضبة سُمّيت باسمه، ونعبّر عن إجلالنا واحترامنا متضرّعين إلى الله طالبين منه أن يهب محبّي شهدائنا وأقاربهم جميعًا الصبر والسلوان!

وكيل القائد العامّ: أنور"





أثناء سير الجنود صَوْب "صَرِيكَامِيش" (١٩١٤م)

الإعدام رميًا بالرصاص

كان الثلج ينثر صقيعًا متّصلًا يلتصق كأنّه صمغ بلحى الجنود المغبرّة التي لم تُحلق منذ أسابيع، كانت "صَرِيكَامِيش" في أيدي الروس، ويلزم على الفور مُحاصرتها لتحريرها، والوصول من هناك إلى المدن الأخرى، وهذا معناه أن يُسبح في بحر الخيال دون اكتراث بقسوة الحقائق، إنّها رصاصة تُطلق على مجهول، وبندقيّة هدفها مبهم، وخطوة تُخطى على جبال "الله أكبر".

كان القائد الشابّ يرى أنّ الانتصارات العابرة في مواجهة الروس ما هي إلّا خطوة نحو الانتصار العظيم؛ فروسيا هي البندقيّة المصوّبة نحو الدولة العثمانيّة في الشرق عبر الأحقاب والدهور؛ استولت على القرم، وطوّقت البحر الأسود، وكان من الممكن أن تُمحى من ساحة التاريخ؛ فيتحقّق هذا النصر العظيم من تلقاء نفسه!

تذكّر القائد حديث سيد القرية الذي ضيّفهم قبل الشروع في الهجوم على "صَرِيكَامِيش":

- سمعت أيّها الباشا أنّكم تريدون الخروج للحرب في "صَرِيكَامِيش"، وقد أعددتم العدّة اللازمة، غير أنّ ثمّة شيئًا لم تضعوه في حسبانكم، إنّه البرد والشتاء!

كم كان هذا الكلام مثيرًا للغضب! فأجاب القائد قائلًا:

- إنّكم تثبّطون الجنود، ولو لم نكن ضيوفًا عليك لقتلتك الآن.

كان الأغا يخفي تجارب مريرة نسجتها السنون على عقله؛ فقال للقائد الغاضب:

- سيّدي الباشا! اقتلني أو لا تقتلني فلا أبالي، إن همي الوحيد هو أن لا تراق نقطة دم واحدة من جنودنا، بيد أنّ هذه الأيّام لا يستطيع أحد كائنًا من كان أن يمرّ من هذه الجبال سواءً كان إنسانًا أم طيرًا.

ربّما كان القرويّ العجوز محقًّا؛ إذ لا شيء يمكن فعله، بينما يرى القائد ضرورة أن يُربك الروس بهجوم مفاجئ يهزمهم معتقدًا أنّه يستطيع أن يضرب الروس من دون استعداد؛ لأنّ القضاء عليهم ليس صعبًا جدًّا لا سيّما بعد هزيمتهم وتقهقرهم إلى الهضاب في "صَرِيكَامِيش"؛ فأخذ يفكّر في خطط محكمة لينفّذها عند زحفهم من بَازْدِيزْ صوب "صَرِيكَامِيش".

تذكّر فورًا برقيّة تلقّاها في "أَرْضُرُومْ" من حسن عزت باشا أحد أساتذة المدرسة الحربيّة، ورد فيها: "البرد القارس وضعف الاستعدادات الشتويّة لا يمنحان النجاح للزحف المأمول، وأتمنّى تأجيل هذا التحرك إلى فصل الربيع أو العمل على تنفيذه في نطاق محدود".

كان القائد المحنّك للجيش يريد تأجيل التحرّك إلى فصل الربيع، أمّا قائد القوّاد الثائر فكان يخطّط لضرب الروس فورًا، وعندما اقتربوا من "صَرِيكَامِيش"، بدأت الاشتباكات مع الروس؛ فحُصد الفيلق العاشر كما يحصد المنجل سنابل القمح تحت صقيع البرد في جبال "الله أكبر" التي سيقوا إليها خطأً؛ تثاقلت أقدامهم، ثمّ أحسّوا بالفتور والنعاس، أوّلًا فقدت الأقدام الإحساس، ثمّ تبعتها المعاصم، والسيقان، والرُّكب، حينئذٍ بدأ العذاب؛ فكانت كلّ خطوة يخطونها عبئًا جديدًا إلى أعبائهم، وتيبّست الأيادي، والتصقت بها البندقيّات مثل: القرادة الملتصقة بالجسد، وما دروا أنّ خِفافهم تجمّدت على أرجلهم، كما لو أنّها انكبست بالمِكبس؛ فلم تكن ثمّة فائدة من النعال؛ فخطوا بأقدامهم الملفوفة بالخِرَق البالية نحو القدر المجهول، وكان يُقال: "سننتصر"؛ لرفع معنويّاتهم، ويقال:

"لم يبقَ إلّا القليل، فعندما يرانا الروس سيولّون الأدبار هاربين إلى "تِيفْلِيسْ"، ولندخلنّ "قَفْقَاسْيَا"؛ إذ تنتظرنا هناك غنائم عظيمة" .

كان يسقط في كلّ خطوة جنديّ على الثلوج، وكانت كلّ خطوة كأنّها خاتم مصكوك على التاريخ؛ فأبناء الوطن يعرفون قيمته، أمّا مَن دونهم فيغرسون الفسائل الصغيرة في أحضان البرد الجائرة، وفضلًا عن هذا، كان مستحيلًا أن يضلّوا السبيل عند جبال "الله أكبر" إذ كانوا يسيرون كيلومترًا واحدًا فقط في الساعة تاركين خلفهم نعشًا لشهيد عزيز، كأنّه علامة للكيلومترات على الطريق؛ فلا يضلّ الطريق من يأتون خلفهم!

بينما انتهى كلّ شيء في هذه الجبال: الجنود، السلاح، الذخيرة، الأحلام... تعالى عواء ذئاب يقرع الآذان والقلوب من بعيد، وصار الشهداء البواسل جزر السباع من غربان تنقر العيون، وذئاب تبقر البطون؛ فيا له مشهد يقطر مرارة وأسًى!

كان قائد الجيش حسن عزت باشا يجوب الجبهة ممتطيًا صهوة جواده، لم يكن ثمّة ثلج في منطقته، بل ريح باردة جافّة أسوأ من الثلج، لمست يده قطعة خبز يابسة في جيبه؛ أخرجها، وعندما رفعها إلى فمه، رأى الجنود البواسل يكابدون المشي على الأقدام، ويتناولون يوميًّا وجبة من طحين القمح؛ فاهتزّ الباشا من داخله، وطرح أرضًا قطعة الخبز، ولأنّ الجنود كانوا على مقربة من الباشا، استحيوا أن يأخذوها، فلمّا انصرف، أخذوها، وقسّموها إلى عدّة لقيمات، وأكلوها!

كان أنْوَر باشا قلقًا غاضبًا لعدم إحراز أيّ من النتائج المرجوّة، وعندما كان يتجوّل في صفوف القنّاصة، رأى جنديًّا عثمانيًّا في السابعة عشرة من عمره؛ أي: في رَيْق شبابه تحت شجرة، جعله التعب والنصب يبدو أكبر سنًّا، أخرج الباشا مسدّسه، وصوبّه نحوه قائلًا:

- من أنت أيّها الجنديّ؟

تحرّك الجنديّ حركات وئيدة؛ إذ لا قدرة لديه للوقوف على قدميه:

- سيّدي القائد، أنا محمود بن محمّد، جنديّ من إسطنبول، من الفوج السابع والثمانين للفرقة الثامنة.

- وماذا تفعل هنا؟

- تلقّت فرقتنا أمرًا بالهجوم على "جَرْكَسْ كُويْ (Çerkesköy)"، واستُشهد كثير منّا أثناء الالتحام بالعدوّ؛ فتفرّقنا، وفقد بعضنا بعضًا، وها أنا ذا أبحث عن فرقتي!

- كلّا، أنت لا تبحث عن فرقتك، أنت هارب من الجبهة.

- سيّدي القائد...

- اصمت، وارفع يديك إلى الهواء، استلقِ على الأرض.

كان الوقوف عسيرًا على الجنديّ الشابّ؛ فقد كان يرتعد، مثل: ورقة شجرة سقطت من غصنها، رفع يديه إلى الهواء، وأخذ حارس الباشا سلاح الجنديّ الشابّ، وسار الجنديّ حتى أوشك أن يسقط، وعند وصولهم إلى مركز القيادة، كان أمر الباشا قطعيًا لا نقاش فيه:

- أمسكته هاربًا؛ سيُعدم رميًا بالرصاص.

ثمّ انزوى القائد في خيمته، أنعم الضبّاط في مركز القيادة النظر طويلًا إلى هذا الشابّ الحزين، وعندما سأله أحدهم:

- من أنت أيّها الغلام؟

كرّر الشاب إجابته على الباشا:

- كنت أحاول العثور على وحدتي، أكابد السير منذ ليلة أمس، لم تبقَ في قدميّ طاقة؛ فانزويت لأستريح تحت شجرة، أحضرني قائدي إلى هنا ظنًّا منه أنّني هارب!

قال العميد عارف بَك:

- أظنّ أنّني أعرف هذا الشابّ.

ثمّ ذهب إلى جواره قائلًا:

- بنيّ، هل كنت في إسطنبول يومًا ما؟

- سيّدي القائد، أنا من إسطنبول، من "أُوسْكُودَارْ".

- هل درست هناك ؟

- كنت في السنة الأخيرة من الكليّة الحربيّة، وعندما اندلعت الحرب، أتيت إلى الجبهة.

- هل تتذكّرني؟

بعد هذا السؤال، رفع الجنديّ عينيه عن الأرض؛ إذ كان مطرقًا منذ ساعات، وأجاب:

- أجل، أستاذي!

- نعم، يا محمود.

- تذكّرتُ، أنت العميد عارف بَك مدرّسنا في مادة الرياضيات.

بدت ابتسامة ربّما للمرّة الأولى في وجهي كلّ من عارف بَك ومحمود، ظهرت الابتسامة على الوجوه الجامدة في هذا المكان العابس الذي يتجمّد فيه كلّ شيء حتى الزمان، على الشفاه الزرقاء من البرد، ابتسامة نابعة من الأعماق، مثل: الدفء الآتي بعد البرد.

تبدّد خوف الجنديّ الشابّ، وحلّ محلّه الأمل، فأيًّا كان الأمر فإنّه في كنف أستاذه.

- أستاذي، كيف سيكون الحال؟ هل ستقتلونني رميًا بالرصاص؟

زالت الابتسامة من وجه عارف بَك وتبخّرت، مثل: قطرة سقطت على مقلاة ملتهبة، غير أنّه استطاع أن يقول:

- سأحاول أن أفعل كلّ ما بوسعي.

ثمّ ذهب إلى جوار القادة الآخرين.

أوثقوا يدي الشابّ من الخلف، وربطوا رجليه أيضًا بوتد، ووضعوا عليه حارسًا لا يفارقه، وكان الشابّ خائفًا، مرتعدًا، مهيض الجناح، مثل مريض بالبُرَدَاء أو مصاب بالصرع، وكان يلبس حذاء مثقوبًا من أسفله، ويرتدي سترة عسكريّة، وكان يسعل سعالًا شديدًا، ويشعر في كلّ سعلة أنّ جزءًا انقطع من جسده.

قال العميد عارف بَك للقادة الآخرين:

- كان هذا الشابّ أحد طلابي، عندما كنت في الكليّة الحربيّة، وليس ممّن يتّصفون بالخسة والنذالة؛ فلا يمكن أن يهرب من ساحة الوغى.

- من أين لنا أن نعلم أنّه صادق؟

- ليس في ملامح وجهه أثر لكذب ألبتة، ولو سلّمنا جدلًا بأنّه يكذب؛ فهل يتّجه إلى خطوط القتال صوب "صَرِيكَامِيش"، أم يتّجه إلى الطريق العكسيّ تمامًا للجبهة، ولا تنسوا أنّه قُبض عليه في خطوط المواجهة الأماميّة، وإذا تناولنا مسألة الهروب من الجبهة، فإنّ هذا الاتّهام لا ينطبق عليه، بل علينا نحن!

خيّم الصمت عليهم جميعًا بعد هذه الحجة؛ فلا شكّ في القبض على هذا الشابّ عند أقرب خطوط القنّاصة للجيش، ولو أنّه كان يريد الهروب، لذهب إلى مكان آخر، وعندما سأل أحد القادة قائلا:

- كيف سنوضّح هذا الأمر للباشا؟

- فلنقصنّ عليه الأحداث، ولا يجب علينا تنفيذ أمره الآن؛ فشرّ الصباح أفضل من خير المساء على كلّ حال، ولو أنّنا أجّلنا ذلك إلى الغد، فستهدأ ثائرته، وعندئذٍ نستطيع أن نتكلّم معه.

- ولعل البشرى تأتي من الميدان بنصر صغير؛ فيدفعنا هذا إلى العفو عنه!

بعد المحادثات انصرف الضبّاط إلى خيامهم، وكان واضحًا جليًّا أنّ النار المضرمة في المنطقة الوسطى من مركز القيادة لن تكون كافية للبرد القارس؛ إذ إنّ الجنود العاملين على توفير الحطب للنار حتى الصباح، كانوا يشعرون أنّهم لن يستدفئوا بها؛ فقد كانت الأرجاء تُضاء فقط بالنار، وتُنقل الجُذا إلى المواقد في خيام الضبّاط.

استمرّ سعال محمود طوال الليل، وكان الحارس عَلِي اليُوزْقَاتِي يُطعمه حصّته من الطعام المخصّص له؛ وهو بعض المحمّصات وقليل من الماء؛ فكان يُذيب الماء المجمّد في السِّقاية بتسخينه على النار بعض الوقت كي يُتاح لهما شربه، نظر محمود الصامت منذ وقت طويل بعينين ممتّنتين إلى رفيق السلاح قائلا:

- جزاك الله خيرًا!

- وجزاك أيضًا يا صديقي!

- سيقتلونني رميًا بالرصاص؛ فلماذا تشاطرني مؤنتك؟

- الصديق يأكل خبز صديقه!

- لماذا؟

- لأنّ موت الصديق حياة العدوّ.

- لأيّ صديق؟

- لمن سيكون رفيقًا للنبيّ المرسل للإنسانيّة جمعاء ﷺ، واللاحق برفاقه في سبيل الله.

- أليست الشهادة بيد العدوّ، لا برصاصة يطلقها عليك الأصدقاء؟

- إجابة سؤالك هذا عندك، فلو أنّك أتيت إلى هذه الجبال بنيّة حسنة، فسيكون الجزاء وفقًا لهذا، ولن تبالي من أيّ مكان يأتيك الرصاص!

صمت محمود برهة، واهتزّ من جديد بالسعال من أعماقه، وكان يواسي نفسه بكلمات الحارس الذي لا يعرف اسمه.

بينما خرج الباشا من خيمته، كانت الشمس تلمع في بلّورات الثلج على "صَرِيكَامِيش"، وكان يتساءل في نفسه عن تأخّر أخبار الانتصار، فلو انتصرنا على الروس ودخلنا القوقاز، فسيمكننا التواصل مع المسلمين في آسيا الوسطى، ويتاح للدولة العثمانيّة أن تكسب في الشرق أراضي بدلًا ممّا فقدته في الغرب، ونعيد أمجادنا القديمة، وبينما كانت هذه الفِكَر تختمر في عقله رأى الضبّاط ينتظرونه؛ فجال بخاطره الجنديّ المقبوض عليه أمسِ؛ فكانت أوّل كلمة تفوّه بها:

- هل أعدمتم الجنديّ الهارب بالرصاص؟

تجاهل أحد الضبّاط السؤال قائلًا:

- كلّا، سيّدي القائد.

وعندما قال:

- كنتم قد أمرتم بمحاكمته في ديوان الحرب.

تضايق الباشا أكثر من ذي قبل، وقال :

- قلت لكم: لقد أمسكته هاربًا، وسيُعدم رميًا بالرصاص؛ عن أيّ ديوان حربٍ تتحدّث يا رجل!؛ فليُنفَّذ أمري حالًا.

فكّ جنديان يدي محمود الموثقتين بوثاق على الوتد، وأمسكاه من ذراعيه، ورفعاه، وأحضراه أمام سريّة الحرس، وكان عَلِي اليُوزْقَاتِي خلف بندقيّة من البندقيّات المصوّبة نحو محمود، لم يسمع أمر القائد:

- صوب... أطلق النار.

أغلق عينيه، واعتصر الزناد!





صورة من قلعة "الأَسْتِرْكُونْ" (مَاجَرِسْتَانْ)

عند قلعة "أَسْتَرْكُونْ"

عندما قال الصدر الأعظم لَالَا محمد باشا "قلعة سلطاننا في يد ملككم، وهي أمانة الله عندنا"، تغيّر وجه السفير النمساويّ وتعجب، ولم يستطع أن يردّ على هذا الكلام؛ وواصل الباشا حديثه قائلًا:

- اعتنوا جيّدًا بأمانتنا، وإذا حان الوقت فإنّنا موقنون باستردادها منكم.

فهم السفير من نبرة صوت الباشا ثبات العثمانيّين وعزمهم، وتوجّس قلبه خيفة؛ فالعثمانيّون يفعلون ما يقولون، جلس سفير النمسا مع الصدر الأعظم على إحدى المائدتين المبسوطتين في قصر "قُبّه آلْتِي"، ولم يستطع أن يأكل شيئًا، وبقيت الملعقة الخشبيّة ملصقة بيده، وانحشرت في حلقه لقمة أخذها بيده مضطرًّا، وأطرق فترة، ثمّ تعلّقت عيناه الزرقاوان بلوحات الخطّ على الجدران والمشغولات الفنيّة الطريفة، كان لا يفهم ما فيها، لكنّ الأذواق الرقيقة للفنّ العثمانيّ لم تكن في قصور النمسا، وفكّر في افتقار قصورهم الضخمة لذوق قصر "طُوبْ قَابِي" الرفيع، كان حرّاس القصر -ذوو الذؤابة المصطفّون أمام الباب- ينتظرون بالصواني الصغيرة في أيديهم، ويركضون بحماس وشغف لتوصيل صينيّة جديدة بدلًا من النافد طعامها، ولاحظ السفير أنّ العثمانيّين لا يتحدّثون كثيرًا.

أحضر السفير ثلاثين ألف دوقة ذهبيّة تدفعها النمسا كلّ عام، بينما كان ملوكها يسعون لأن تكون أعظم إمبراطوريّة في أوربّة بعد روما، بيد أنّ سفيرها لم يكن ليحظى بمقابلة السلطان العثمانيّ، فلا موازنة

بين إمبراطور النمسا والسلطان العثمانيّ؛ فكان غاية ما يُسمح لسفيرها به أن يقابل الصدر الأعظم؛ فلاحظ حال دولته المهين. لم يكن أحد ليتصوّر الاستيلاء على قلعة "أَسْتَرْكُونْ *(Estergon)*" بعد أن ظلّت اثنتين وخمسين سنة في قبضة مثل هذه الدولة؛ كان الزمان يبشّر بعودة العثمانيّين إلى أَسْتَرْكُونْ!

منذ قليل أخذ الإنكشاريّون رواتبهم خارج قصر "قُبَّه آلْتِي"، وتناولوا الحَساء واللحم، وغادروا القصر، وعندما أخذوا رواتبهم هزّوا جدران القصر قائلين بصوت واحد:

- أطال الله عمر سلطاننا ودولتنا!

ارتعدت ركبتا السفير خوفًا، ولا زالت طبول الموسيقا العسكريّة العثمانيّة تخيفه وتلقي في قلبه الرعب والفزع، وأُعجب بالسجاجيد المفروشة عند توزيع الرواتب للإنكشاريّة، وعندما رأى الأسود المتجوِّل بها، وعى تمامًا مدى قوّة العثمانيّين، وأدرك أنّهم لن يتركوا منطقة "أَسْتَرْكُونْ".

عندما رُفعت جِلسة الاجتماع الديوانيّ، مرّ الصدر الأعظم بمقرّ الفرقة الموسيقيّة العسكريّة، وعندما سار ليمتطي جواده عند باب السلام، رأى في ميدان "آلايْ" إبراهيم بَجَوِي أَفَنْدِي منتظرًا تحت شجرة الدُّلْب أمام دائرة رئيس البلديّة، فعدل عن ركوب الجواد، وأشار إليه بالمجيء، وتعانقا، قال الصدر الأعظم:

- أهلًا وسهلًا، شرّفتنا يا إبراهيم بَجَوِي؛ إذ نشرف بتشريفكم إيّانا!

- أهلًا بكم سيّدي، الشرف لنا!

- كيف حالكم؟

- أريد أن أحمل لكم البشرى، لكن...

- تفضل.

سكت إبراهيم بَجَوِي أفندي دون أن ينهي كلامه، وسارا فترة في الفناء الأوّل صامتين، وأحضر السائس جواد الباشا، ومشى رويدًا خلفهما لكيلا يسمع حديثهما، وبعد حديث قصير ذكر الصدر الأعظم جرحه النازف قائلًا:

- إبراهيم بَجَوِي أفندي، جنودنا المرابطون على الحدود يقاتلون الأعداء دون توقّف ليحافظوا على حدود الدولة العليّة العثمانيّة وقد بذلوا الأرواح في هذا السبيل.

- صحيح، سيّدي.

- هذا يعني أنهم ينالون شرف الشهادة في سنّ الشباب دون أن يكابدوا ألم الشيخوخة ودون أن يكوّنوا أُسَرًا وأولادًا ودون أن يعرفوا الحياة الزوجيّة.

- الحدود هي دولة البواسل من الشباب، أبقى الله دولتنا، وأطال عمر سلطاننا!

- آمين، غير أنّ قلعة أَسْتَرْكُونْ -يا إبراهيم- هي جُرْح ينزف داخلي، وهؤلاء الشباب قدّموا أرواحًا كثيرة بغية استرداد هذه القلعة، وتركوا خلفهم أمّهات ثكلى وأطفالًا يتامى.

- سيّدي، بفضل شجاعتهم وفدائيّتهم يعيش الوطن سعيدًا مستريحًا، ويلزم أن نفعل مثلما يفعلون لاسترداد قلعة أَسْتَرْكُونْ.

- يقول سلطاننا: "ورثنا أَسْتَرْكُونْ عن جَدّنا السلطان سليمان خان، وتركُها في يد العدوّ يقضّ مضجعه في قبره"، وأنا أيضًا أشعر أنّ تسليمنا القلعة للعدوّ والسكوت عن ذلك يُسقط على قلبي جمرة نار ملتهبة.

- أنت محقّ يا باشا، لكنّك تعلم ما نعايشه هذه الأيّام، وتعلم حالًا بائسة هوى فيها جيشنا تحت قيادة سنان باشا زاده في مواجهة العدوّ، وقد حاصرت النمسا قلعة أَسْتَرْكُونْ بجيوشها كلّها بعد انتصارهم.

أطرق لَالَا محمد باشا مليًّا، ثمّ مسح لحيته بيده، ونظر أمامه، وعندما ظهر من جديد على وجهه أثر بعض مواجع عاشها، واصل الحديث قائلًا:

- قد أتوا على حين غِرّة بعددهم وعُدّتهم لمحاصرتنا؛ أليس كذلك؟

- سيّدي، هل رأيت قطّ كافرًا حارب الدولة العثمانيّة بمفرده؟ هم دائمًا متّحدون، أليس كذلك؟

- أصبت، ولكن أين كان سنان باشا زاده محمد، وأين كان ابن الوزير الأعظم قائد المجر، ألم يكن من الممكن أن يساعدا من كانوا في قلعة أَسْتَرْكُونْ؟

- يا سيّدي، إنّها دنيا الابتلاء، أنتم تُختبرون تارة بالعدوّ وتارة أخرى بقائدكم، كنتُ في هجوم شنّه سنان باشا على "نَمْجَةْ *(Nemçe)*"، وتحصّنا في معاقل صغيرة في منطقة "تَبَه دَلَنْ *(Tepedelen)*"، ورأيت بنفسي هجوم الفُرسان على جنود العدوّ الذين تحصنوا في تَبَه دَلَنْ، ورأيت حالًا محزنة هوى فيها فوارسنا على حين غِرّة؛ إذ بدأ العدوّ يطلق وابلًا من الرصاص، وسرعان ما انهزم جنودنا فجأة، مثل سنابل تحصدها المناجل، وقدّمنا شهداء كُثرًا في "تَبَه دَلَنْ"، واستُشهد عثمان باشا أمير أمراء يَنِقْ وقائد الفرسان المهاجمين، واستُشهد عقبه جنوده جميعًا، ومن بقوا تفرّق شملهم، وعُدّوا في عِداد المفقودين، أمّا سنان باشا زاده، فقد ولّى هاربًا، فهل حدث أنّ عثمانيًّا فرّ من ميدان القتال؟ ولست أدري؛ هل كانت الدولة العثمانيّة تُمتحن بهذا الجنديّ الإنكشاريّ؟

- بَجَوِي، لا عليك، لا تشغل نفسك بسنان باشا هذا؛ فكلّ إنسان سيُجازى عمّا يفعل، و يزام علينا ألّا نغتابه لكيلا نتحمّل الوزر سُدًى.

- كنّا في غنًى عنه يا سيّدي، غير أنّ الأمير مَانْشفيلْد(Mansfeld) هجم علينا في "أَسْتَرْكُونْ" بجيش من الألمان، والمجر، والبولنديّين والتشيك، وحاصروا القلعة بسبعين ألف جنديّ.

تنفّس الصدر الأعظم الصُّعَداء، وقطّب جبينه قائلًا:

- فعلنا ما كان يجب علينا أن نفعل، ولم نستطع مقاومة هذا الحصار!

- سيّدي، أردتم قبل الحصار أن نحتمي بسرعة في القلعة، وكان تحت لوائنا ألف وأربع مئة جنديّ من جنودنا، وبالإضافة إلى ذلك كانت العساكر الخاصّة بلواء "أَسْتَرْكُونْ" وسِرَمْ (Sirem) مع جنود الحراسة هناك بصفة معتادة، والعدد الإجماليّ لجنودنا لم يصل إلى خمسة آلاف جنديّ؛ فماذا عساهم أن يفعلوا أكثر ممّا فعلوه مع قوّة بهذا القدر؟

- لا أدري؛ ماذا عسانا أن نفعل يا إبراهيم، بيد أنّ ألم قلعة "أَسْتَرْكُونْ" كأنه ذئب يجول داخلي.

- كان عدد مدافعهم اثنين وأربعين مدفعًا كبيرًا، وكانت تدُكّ قلعتنا ليل نهار دون توقّف، أتتذكرون؛ كانوا يقذفوننا بألفي قذيفة في اليوم؟

سكتا مليًّا، وأتيا على مشارف الباب الخارجيّ للقصر المسمّى الباب السلطانيّ، نظر الصدر الأعظم فترة إلى البحر، ورأى بضع سُفُن حربيّة صغيرة، وكلّما تحدّثا عمّا حدث قبل تسع سنوات، تجدّد الألم، وكانت الذكريات تتوارد على ذهنه كأنّها سلك شائك، ثمّ قطع الباشا الصمت قائلًا:

- لا يُواجه الحصار بمدفع وجنديّ فقط؛ سيأتي علينا يوم يكون فيه الجوع والعطش أشدّ ظُلمًا من العدوّ.

- وفي الحقيقة كنّا لا نجد ما نأكله، وكان قطعُ العدوّ سبلَ الماء عنّا أصعب من هذا كلّه.

- ألم نكن نتيمّم طوال أيّام بدلًا من الوضوء؟

- بلى، -سيّدي- كان نهر "طُونَهْ *(Tuna)*" يجري من تحتنا، إلّا أنّنا كدنا نموت عطشًا!

عندما وصلا إلى الباب السلطانيّ، رفع إبراهيم بَجَوِي رأسه، ونظر إلى الباب والقصر، فالباب مهيب مثل الرجل العثمانيّ، والقصر المتواضع بجانبه يذكّره بباب قلعة "أَسْتَرْكُونْ"، وعندما تحدّث بدأ صوته يرتجف، واغرورقت عيناه بالدموع، وسرح بخياله ثانيةً إلى زمن عاشه في القلعة.

* * *

كان نهر "طُونَه" يجري رويدًا رويدًا، مثل القمر الذي ولِد حديثًا، وبينما كان النهر يحمل ماءه ببطء، مثل قوافل الجمال المحمّلة بالأمتعة، كان يبدو من الجانب الآخر انهيار جنودنا من العطش، نظر إبراهيم بَجَوِي إلى نهر طُونَه وإلى جنود يئنّون من العطش؛ أغلق العدوّ خطوط مياه القلعة كلّها، وليس في القلعة ينابيع، وليس ثمّة وقت لحفر ينابيع، وكان الماء وقتئذٍ أغلى قيمة من الخبز والطعام، والحب والعشق، وقد تشقّقت شفاه الجنود مثل الحقول المجدبة.

نظر قائد القلعة لَالَا محمد باشا من برج القلعة أوّلًا إلى جنود العدوّ، وما أكثرَهم! ثمّ إلى القوّات العثمانيّة؛ كانت لا تعدو أن تكون حفنة موازنة بجند العدوّ، وكأنّ كلّ قذيفة تصيب القلعة تُغرز في بدنه، أمّا القذائف

المُطلَقة على الناحية المرتفعة من القلعة، فكانت سببًا في استشهاد طائفة من الجنود العثمانيّين وجَرح بعض آخر جراحًا بالغة، وكان عدد الجرحى ثلاثة أضعاف عدد الشهداء، ولم يتمكّن ذوو الجراح الطفيفة من عبور السور لتضميد جراحهم.

كان هذا اليوم هو العشرين تحت وطأة الحصار، وكان الماء الباقي في صهاريج المياه يوشك أن ينفد، فلا بدّ من الاقتصاد فيه، وقد اضطلع قائد القلعة بمهمّة توزيع الماء بنفسه، إذ أحصى العسكر، ووجد أنّه ليس لديه سوى حِمل جوادَيْن ماءً لمئتي رجل؛ فغمس مغرفة من القرع في الماء، وابتهل إلى الله بالدعاء مخلصًا أن يبارك في الماء، وملأ مغرفتي قرع كبيرتين إلى حدّ ما، وأرسلهما إلى الجنود في إحدى الفِرَق، وكان الجنود الآتون من الفِرَق الأخرى ينتظرون الماء بلهف شديد، وكان يصبّ في اليوم أربعين لترًا من الماء لمئتي رجل يتجشّمون أعمالًا بدنيّة ثقيلة؛ يحملون الحجارة، والبندقيّات، والمدافع، ويتناوبون الحراسة عدّة ساعات تحت وطأة الحرارة لشمس آب/ أغسطس، وهذا يعني أنّ الرجل لا يأخذ في اليوم الواحد سوى غرفة ماء، وكان الماء يوزّع عند وقت الظهيرة، وكانت غرفة ماء في اليوم الواحد تكفي عدّة أيّام.

كان حول الحوض جنود أثخنتهم الجراح، في حالة يُرثى لها من شدّة الحرارة؛ كانوا يلعقون رخام الحوض الرطب، مستعدين أن يبذلوا أرواحهم من أجل قطرة ماء؛ جنود منهكون عاجزون، بعضهم بلا يد وبعضهم بلا قدم، بعضهم جريح من قذائف الأعداء وبعضهم حريق من قنابلهم، كانت الحروق والجراح في وجوههم منتفخة ومتورّمة، فما عادوا يبصرون؛ فهم الآن جرحى وعُمْيٌ في الوقت نفسه، وربّما كانوا أسعد حالًا من مبصرين تذهب نفوسهم حسرات عندما يرون نهر "طُونَه"

من بعيد، وماذا عساهم يفعلون؟ فكلّما انهمر نهر "طُونَهْ"، تعمّقت آلامهم؛ فكانـت صيحاتهـم وتأوّهاتهـم تملأ القلـوب بالحزن والأسـى؛ وأجهش كلّ من محمد باشا وإبراهيم بَجَوِي بالبكاء.

الجنود يهلكون، والطعام والماء يتضاءلان، والذخيرة تنفد، ولا يتزايد إلّا الجرحـى وصيحـات تزلـزل القلـوب، و"أَسْـتَرْكُونْ" العظيمة تتضاءل وتضمحلّ من شـدّة الهجوم؛ فكأنّ حوائـط القلعة المصابة بقذائف العدوّ هـي مـن يهاجـم العثمانيّيـن لا العدوّ نفسـه، مكثوا هنـاك محاصرين بين المِطرقة والسندان.

نظر إبراهيم بَجَوِي إلى لَالَا محمد باشا وقد بدت على وجهه علامات القلق والضيق، وتساءل قائلًا:

- لا قبـل للجبال الرواسـي بنيران المدافـع بهذا القدر -سـيّدي-، لطف الله فقط جعل قلعة "أَسْـتَرْكُونْ" تتحمّل خمسـة وعشـرين يومًا، لكن ماذا بعد؟

وأصابت القلعة ضربة أخرى قبل أن يُجيب محمد باشا.

- كان الله في عوننا دائمًا يا إبراهيم، الكفّار يهاجموننا بحنق عظيم، لكـنّ هناك ما هو أسـوأ مـن هذا؛ فالحقد أعمى عيونهم، وأخشـى ألّا يكتفوا بالمدافـع والقنابل.

لـم يفهـم إبراهيـم بَجَوِي مقصد الباشـا، غير أنّه ما أراد أن يسـتقصي، فالروح ستضيق، ولـم يبقَ ثمّة موضـع للآلام الجديدة أثناء المصائب الكثيرة.

وفـي الصبـاح التالي سُـمـع دويّ انفجار بالـغ الشـدّة، وارتجّ المكان رِجّة عنيفة، وظنّوا جميعًا أنّ ثمّة زلزالًا وقـع، وأسكت محمد باشا جنوده المرتعدة فرائصهم قائلين: "زلزال، زلزال".

- ليس زلزالًا، بل لغم الأعداء؛ فلينزل بسرعة جند الأبراج جميعًا.

وقع انفجار آخر بالغ الشدّة بعد لحظات من الانفجار الأوّل لم يدع فرصة لنزول الجنود الذين يترصدون العدوّ على الأبراج، زرع الأعداء الألغام تحت القلعة، وأضرموا النار في بارود وضعوه في الأنفاق الواصلة إلى أساس القلعة، وكان من المستحيل أن تتحمّل قلعة "أَسْتَرْكُونْ" هذه الألغام؛ انهار أحد الجدران المطلّ على نهر "طُونَه" محدثًا جلبة عنيفة، بينما كان الجنود فوقه، وكان الجنود لا يرى بعضهم بعضًا من الدخان المتصاعد، وسقطت فئة منهم في الجانب الداخليّ في القلعة، وفئة أخرى في الجانب الآخر ناحية العدوّ، وقُتل من سقط في الخارج قبل أن يلتقطوا أنفاسهم، وانتقل من سقط في الداخل ناحية صهريج المياه.

تهدم جدار من القلعة فكان نهر "طُونَه" يظهر من جوانب القلعة جميعها، وبدأت قلعة "أَسْتَرْكُونْ" تعاني سكرات الموت، واستحوذت وحدات العدوّ -دون أن تدع فرصة لانقشاع سحابة الغبار- على البرج في ناحية الجدار المنهار، والآن لم يعُد العثمانيّون وحدهم في القلعة!

مدّت وحدات العدوّ على أحد جدران القلعة جلد البقر بعضه على بعض بكثافة بين أربعة أو خمسة ألواح من خشب الصنوبر الثخينة الطويلة، وصنعوا مِظلّات عملاقة معتمدة على الجدار، وراحوا يحاولون نقب جدار القلعة بالحفر أسفله، ويحاولون نقب الجدران الأخرى بهذه الطريقة في مواضع لم يُتح لهم أن يحفروا أنفاقًا بها، وكانوا يحاصرون قلعة "أَسْتَرْكُونْ"، مثل أسراب النمل، وإذا أراد الجنود العثمانيّون دفع الأعداء بالرماح من الجدران المنقوبة، أمسكت عدّة آلاف من أيادي الأعداء بأطراف الرماح، وفهم العثمانيّون أنّهم لن يُتاح لهم صدّ الأعداء بالرماح من القلعة، وعندما حلّ المساء انسحب الأعداء، وما بقي منهم إلا المستقرّون في البرج بأماكنهم.

كان القادة يتناولون طعام المساء من ناحية ويقوّمون الموقف النهائيّ من ناحية أخرى، كانوا يتناولون وجبتين يوميًا، وطعامهم لا يتغيّر في كلتا الوجبتين؛ يأكلون القمح فقط طوال خمسة وعشرين يومًا، فما يأكلونه اليوم مثل ما أكلوه أمسِ، وما أكلوه الأسبوع الماضي مثل ما أكلوه في سابقه، ويسحبون القمح المحمّص بالنار في الصينيّة، ويضعونه في رحَى يدويّة ويصبّون عليه مِغرفة من الماء، وكان عشرون شخصًا يقتاتون على هذه الوجبة.

وبينما كان إبراهيم بَجَوِي أفندي يحرّك الملعقة على القمح في الإناء نفسه مع سبعة رجال ناحيته، مازحهم قائلًا:

- انظروا، ما أجمل هذا الطعام! نحن الآن نأكل بطيب نفس وسرور، لماذا غفلنا عن هذا النعيم ونحن في إسطنبول؟

بعد ساعة عقد قائد القلعة لَالَا محمد باشا وقائد فرقة (سرم) حسين بَك، وإبراهيم بَجَوِي، وكاتب المكافآت أحمد جلبي اجتماعًا ليقوّموا الحال النهائيّ، قال قائد فرقة (سِيرَمْ) حسين بَك:

- سيّدي، لم يبقَ لدينا ماء يكفينا ثلاثة أيّام، وقد احتلّ العدوّ أحد أبراج القلعة، ولم يبقَ بيننا وبينهم حائل؛ إذ ينقبون في زوايا القلعة كلّها، وإذا سقط حجر من القلعة، فلن تمكن السيطرة عليها مرّة أخرى، وأخشى أن تنفد سُبُل حمايتها كلّها؛ فالجنود هنا يخافون الهزيمة، ويطلبون الانسحاب الآمن.

- وماذا تريد أن نفعل يا سيّدي؟

- أنا لا أخاف من الثعبان، وإنّما أخاف من الكذب، وأقول: فلنتفاوض مع العدوّ حول الانسحاب الآمن، ولا نضحي عبثًا بهؤلاء الجنود هنا.

عبس وجه لَالَا محمد باشا، وتنفّس الصُّعَداء قائلًا:

- حسـين بَك، لن ننسـحب؛ هذه القلعة تَذكار من السلطان سليمان خان، وإذا لزم الأمر فلأموتنّ شهيدًا مقاتلًا هنا، ولن أسلّمها للكفار أبدًا.

- سيّدي، لقـد انقطعت الإمدادات عن القلعـة، وعندما ينفد الماء تمامًا بعد ثلاثة أيام، فإنّ الجنود سـينهارون من تلقاء أنفسـهم، فيكفينا أن نخرجهـم أحيـاء مـن القلعة، ويمكننا أن نسـتردّ القلعـة مرّة أخرى في الربيـع القادم.

عاد الباشا إلى إبراهيم بَجَوِي وأحمد جلبي قائلًا:

- هل هذا هو رأيكما أيضًا؟

- لم تبقَ ثمّة حيلة أخرى نستطيـع أن نفعلها يا سيدي!

- سيقول الكفار: "إنّهـم خافوا الموت، وسـلّمونا القلعة"؛ فأجدر بنـا وأحـرى أن نمـوت جميعًـا بـدلًا من أن تـروج الشـائعات الباطلة عن الدولة العليّة.

إبراهيم بَجَوِي:

- سيّدي، يعلم الله أنّنا لا نخشـى الموت، بل إنّنا سنلبّي مسرعين، إذا كانت الشهادة من أجل غاية مهمّة، لكن لا مغزى لأن نضحّي عبثًا بجنودنا هنا.

لم يطب لَالَا باشا نفسًا ممّا قالوا، فصعِد مغاضبًا البرج من السُّلَم.

وأحكـم مـن كانوا في الأسـفل خِطّـة فيما بينهـم، وفي الصبـاح أدّوا صـلاة الصبـح متيمّميـن كما هو الحـال يوميًا، وخرجوا مـن القلعة خُفية مـن الباشـا قبـل أن يسـتيقظ الأعداء وقبـل أن تهبّ نسـائم الصباح، وفي أيديهم راية بيضاء، وذهبوا إلى خيمة أمير النمسـا مانسـفيلد *(Mansfeld)*،

وكان نائمًا، وانتظروا أمام خيمته ساعتين حتى استيقظ، استقبل مانسفيلد ضيفه مضّجعًا على عرش صغير، وكانت الخيمة مظلمة إلى حدّ ما، وتحفّها النساء، وكنّ ينظرن إلى العثمانيّين بازدراء واحتقار، وكان في يد مانسفيلد عِذق عنب يأكله، فضحك قائلًا:

- هذا يعني أنّكم جئتم تتحدّثون عن الاستسلام.

أكل ما بيده ناظرًا في عيونهم ولسان حالهم يشي بما قاسوه من ضيق وعنت في القلعة.

- ثُبتم في نهاية المطاف إلى رشدكم؛ لا أفهم؛ لماذا تدافعون بغباوة ثمانية وعشرين يومًا عن القلعة؟ انظروا إلى أبناء العثمانيّين.

ضحك أكثر قائلًا:

- لقد سقطوا في الفخّ، وأتوا يطلبون النجاة بأنفسهم.

كان إبراهيم بَجَوِي ضجرًا من كلام الأمير، غير أنّه في الوقت ذاته لا يجيب؛ لأنّه لا يريد أن يلقي بحياة العشرات من الناس في التهلكة، وكان الأمير منتشيًا من هذا العمل.

- لم تستطيعوا أن تتحمّلوا المخمصة والصدى، وها أنتم أولاء تتضوّرون جوعًا.

لم ينبس وفد العثمانيّين ببنت شفة، ومثلوا مجبرين على الإصغاء إليه، فقال:

- أحضروا لهؤلاء الخبز والماء.

وُضع أمامهم ثلاثة آنية من الماء وخبز صابح كبير إلى حدّ ما، لم يكونوا قد ذاقوا الماء منذ ثلاثة أيّام، أمّا الخبز فمنذ ثلاثة أسابيع، لكنّهم مسلمون أنفسهم عزيزة لن يأكلوا شيئًا في مكان يُعاملون فيه معاملة سيّئة؛

عندما رأى مانسفيلد عزوفهم عن الخبز والماء، أخذته الحيرة والعجب، لم يستطع أن يفهم المغزى من انتصابهم بوقار وهم جياع عطشى منذ أيّام!

- كيف سيكون الاستسلام؟

- سيخرج جنودنا وأهلونا من القلعة سالمين مصونين، وستقلّنا سُفُنكم من حصوننا في نهر "طُونَه" حتى قلعة "فيشه كرد *(Vişegrad)*"، وستساعدون جنودنا ومن يريدون أن يأتوا معنا أن يأخذوا أمتعتهم الشخصيّة آمنين على أموالهم وأرواحهم، ونحن بدورنا سوف نسلّمكم قلعة "أَسْتَرْكُونْ".

قال مانسفيلد:

- حسنًا، أوافق.

فقد سئمت نفسه هو أيضًا من حصار القلعة منذ أشهر، وقد هزم العثمانيّين وهذا يكفيه، وفي خاتمة المطاف سيسمح بخروجهم سالمين بشرط تسليم القلعة، وإذا كان لَالَا محمد باشا لم يقبل الاستسلام أوّلًا، فقد صار مقتنعًا بأنّه لم يبقَ أمامه حلّ آخر لمشكلة الماء والقمح النافدين.

صعِد بسرعة أعلى الأبراج، ولو كان مباحًا قتل النفس لألقى بنفسه من أعلى القلعة؛ على الأقلّ يكون قد مات بها، وأنزل العَلَم العثمانيّ عن السارية واحتضنه، ودفنوا آخر الشهداء لهم في "أَسْتَرْكُونْ"، وقبل أن يخرجوا من القلعة قرؤوا سورتي الفاتحة ويس على شفير القبور؛ حزن لَالَا محمد باشا حزنًا شديدًا قائلًا:

- الأعداء سيطؤون هذه القبور بأقدامهم.

ولو أنّ الأحوال كانت مواتية، لنبش هذه القبور ونقلها معه؛ فتذمّر قائلًا:

- اصبروا أيّها الشجعان على هذا الفراق حينًا من الدهر.

ودعا قائلًا:

- ربِّ لا تقبض روحي إليك حتى نستردّ هذه القلعة مرّة أخرى!

كان الانسحاب محظورًا على العثمانيّين ومحرّمًا في أعرافهم، وكانوا نادمين ومضطربين، كأنّهم اقترفوا إثمًا عظيمًا، وعندما خرج الجنود من القلعة، لم ينبس أحدهم ببنت شفة، وخرجوا وعيونهم تفيض من الدمع حزنًا؛ كان الجنود يغادرون قلعة هي تَذكار من السلطان سليمان مطأطئين رؤوسهم، مثل شجرة دوّار الشمس لم يُتح لها أن تعثر على شمسها، خرج الجنود أوّلًا، ومن خلفهم كان يتقدّم الجرحى شيئًا فشيئًا، وكانت وجناتهم -المحرومة من الماء منذ أيّام- مبلّلة بدموعهم، ورغم أنّهم كانوا يئنّون منذ أيّام قائلين: "الماء"، ويلعقون جدران الحوض المرمريّة ويأكلون منقوع القمح ثمانية وعشرين يومًا، لم يفكروا عند ورودهم على شاطئ نهر "طُونَه" في شرب الماء ولا في جوعهم؛ خرج أصحاب القلعة بأموالهم وأسلحتهم، وكانت سفينة من أسطول العدوّ تنقل الجند الخارجين من القلعة وأهليهم إلى قلعة "ويشه كرد" -إحدى القلاع العثمانيّة في نهر "طُونَه"-، نظروا من بعيد إلى "أَسْتَرْكُونْ"، كان النقب محفورًا والجدران شديدة السواد مُغَشَّاة بالسُّخام المحروق، وكانت أحجار القلعة وجوانبها المنهدمة كأنّها تقول بلسان حالها: "تركتموني، فإلى أين تذهبون؟"، ولم يطيقوا رؤية العلم الصليبيّ مرفوعًا على القلعة!

* * *

عندما مرّ إبراهيم بَجَوِي أفندي من الباب السلطانيّ -الباب الخارجيّ لقصر "طُوبْ قَابِي" في إسطنبول-، ثارت في نفسه ذكريات خروجهم من قلعة "أَسْتَرْكُونْ" غرّة أيلول/ سبتمبر؛ فحزن مجدّدًا، وقال:

- بواسلنا المرابطون في الثغور وأسودنا المرابطون في إقليم الروم أيضًا يحترقون ويكتوون بنار فقدانهم قلعة "أَسْتَرْكُونْ"؛ جنودنا

في مدن الثغور ينشدون هذه الأنشودة، وقد وردت إلى مسامعي في الأيّام الأخيرة:

قلعة "أَسْتَرْكُونْ"حصن يمر أمامه الماء

يقضم الفراق السريّ أعماقي

القلب سادر، والحبيب نافر

فلتجفّ نهر "طُونَه"؛ فإنّي حزين

وحظّي العاثر خلف قلبي سائر

* * *

قلعة "أَسْتَرْكُونْ"حصن يمر أمامه الماء

تنعق البوم، وتسكت البلابل

فلتجفّ "طُونَه"؛ فإنّي حزين

يرفع الكفار علمهَم على أبراجه

فلتجفّ نهر "طُونَه"؛ فإنّي حزين

حظّي العاثر فوق النار هادر

* * *

قلعة "أَسْتَرْكُونْ" حصن يمر أمامه الماء

تصل أبراجه عنان السماء

ما كان لنا أن نتخلّى عنكِ

فلتجفّ "طُونَه"؛ فإنّي حزين

حظّي العاثر خلف الحبيب طائر

- يقولون: ما كان لنا أن نتخلّى عنكِ!

قال إبراهيم بَجَوِي وهو خارج من الباب الهمايوني ذاهبًا إلى بيته :

- سيّدي، نحن نعلم كيف نستردّ القلعة، كما سلّمناها.

وكان لَالَا محمد باشا لا يزال حزينًا لإجبارهم على تسليم قلعة "أَسْتَرْكُونْ" العدوَّ؛ جثمت القلعة على قلبه، كأنّها ألم فريد، وكلّما سمع الأنشودة الغادية على الألسنة، اغتمّ وتكدّر، كانت "أَسْتَرْكُونْ" قلعة حصينة أُودِعَت نهر "طُونَه"؛ فهي مثل حبيب يتعذّر وصاله؛ هي اسم آخر للحنين المتّقد.

رحلت البلابل وسكنت البوم الأغصان في "أَسْتَرْكُونْ"، وانتصب علم الكفّار عليها، يقولون: "فلتجفّ "طُونَه"؛ فإنّي مكروب، حظّي الأسود يحترق بهذه النار".

ومضت الأعوام كورقة الدلب التي تسوقها الرياح، وتغيّر السلطان في الدولة العثمانيّة؛ تولى السلطان أحمد الأوّل العرش بعد السلطان محمد الثالث، فأصبح السلطان الرابع عشر للدولة العثمانيّة في الرابعة عشرة من عمره، وقد تغيّر أيضًا منصب لَالَا محمد باشا في السنة الثانية من حكم السلطان -المستمرّ أربعة عشر عامًا-؛ فأصبح الصدر الأعظم للسلطان.

وربّما يكون منصب الصدر الأعظم علاجًا لألم ثائر منذ سنين، وعندما كان أعضاء الديوان يتشاورون في القصر حول الشؤون المتعلّقة بقضايا الدولة العليّة، طرح الموضوع على الهيئة قائلًا:

- بقاء قلعة "أَسْتَرْكُونْ" في يد العدوّ يعني أن منطقتي "بُودِينْ *(Budin)*" و"بَشْتَهْ *(Peşte)*" ستظلّان خاضعتين لتهديداته، ألا يقتضي هذا

أن نستردّ "أَسْتَرْكُونْ" مرّة أخرى؟

مضى شهر من حكم السلطان، وذات يوم خرج السلطان الشابّ من دار الأمانات المقدّسة، وكان متشحًا براية النبيّ محمّد ﷺ، وُضعت الراية أمام باب السعادة، وحان وقت الرحيل، قبّل السلطان الصدر الأعظم، وأعطاه الراية، وبدا واضحًا من ذلك الوقت أنّ قلعة "أَسْتَرْكُونْ" ستكون قلعة عثمانيّة، وأمّن لَالَا محمد باشا على دعاء السلطان أحمد، وأردف قائلًا:

- إلهي، أنزل السكينة على قلبي ببشرى الفتح والنصر، بحقّ حبيبك ﷺ انصر جند الإسلام!

عندما ولّى الجنود وجوههم شطر "أَسْتَرْكُونْ"، كانوا في غامر نشوتهم بلقاء الحبيب حبيبه، وكان أيضًا لَالَا محمّد باشا وإبراهيم بَجَوِي وأحمد جلبي قد وصلوا إلى مشارف قلعة "أَسْتَرْكُونْ" في شهر آب/ أغسطس، وقد تركوها في شهر آب/ أغسطس، وبعد اثنتي عشرة سنة عادوا شامخي الرؤوس إلى أرضهم الحبيبة، كان لَالَا محمد باشا أميرًا للأمراء عند تسليم قلعة "أَسْتَرْكُونْ"، لكنّه أصبح الآن الصدر الأعظم، والقائد العام، وكأنّ عقارب الساعة قد عادت إلى الوراء تمامًا.

حُوصرت القلعة في التاسع والعشرين من شهر آب/ أغسطس عام ١٦٠٥م، وكان الفاتحون يقاتلون لاستردادها بعزيمة مطلقة وكأنّهم الأُسُود، ومن ناحية أخرى كانت القلاع الثلاث القريبة منها عند حدود نهر "طُونَه" هدفًا للمدافع العثمانيّة، وسقطت قلاع "تَبَه دَلَنْ"، و"فيشهكرد *(Vişegrad)*" و"جِيغَرْ دَلَنْ *(Ciğerdelen)*" واحدة تلو الأخرى، وفي يوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر فتحت ضواحي القلعة،

ودكّت المباني الداخليّة بالمدافع العثمانيّة عشرة أيّام، وكانت قذائف المدافع تتطاير، مثل الأناشيد المنبعثة من الشفاه المشتاقة، وتفتّحت أبواب "أَسْتَرْكُونْ"، كالزهرة الملقاة على العاشق الولهان، وفي اليوم العاشر صاح لَالَا محمد باشا في الجيش كلّه:

- يا أيّها الفاتحون، حان وقت الزحف الأخير، هيّا، يا الله.

وفي هذا اليوم وليلته استمرّ الحصار المفروض على القلعة بشدّته كلّها، وامتلأت المتاريس والهضاب والوديان حتى الصباح بالمجاهدين المسلمين، وعندما رآهم الكفّار أيقنوا بهجومهم، وذلك قبل منتصف الليل، وأتى وفد باتجاه كتيبة يقودها أغا الإنكشاريّة مصطفى أغا يصيحون وينوحون طالبين الأمان، وسألوا عمّن سيتحدّثون معه عن الانسحاب الآمن.

وصل هذا الخبر المفرح بأقصى سرعة إلى الصدر الأعظم؛ خلع لَالَا محمد باشا قبّعته، وكانت على رأسه عمامة، وفرش سجّادته، وسجد لله -تعالى- شكرًا؛ لاحظ إبراهيم بَجَوِي أفندي دموع الفرح في عينيه؛ ناداه الصدر الأعظم قائلًا:

- إبراهيم بَجَوِي.

هُرع فورًا إلى جواره؛ رفع الباشا رأسه، ونظر إلى إبراهيم بَجَوِي، ثم ابتسم دون أن يكترث بقطرتي دمع بقيتا متأرجحتين في عينيه، وضحك وجهه الذي نسي التبسّم منذ سنين قائلًا:

- كانت لديك رغبة عارمة في الحرب الماضية في تسليم القلعة والتفاوض مع الكفّار، رغم أنّ هذا لم يكن واجبًا عليك ألبتة، وهذه المرّة آمرك بذلك.

- تعرفون -يا سيّدي- أنّ كلّ شيء بقدر الله، فإنّ هذا هو طلبي من الله ودعائي إليه منذ ذلك الزمان، فكما تفاوضت معهم على الاستسلام لهم، فسأكون أنا المتفاوض معهم على استرداد القلعة.

- هذا وقتك يا بَجَوِي؛ فلا تتوانَ في مهمّتك.

فرح إبراهيم بَجَوِي حتى إنّه لم يدرِ ماذا يفعل، وخرج من مقرّ القائد الأعظم غير مكترث بالدموع المنهمرة من عينيه.

عيّنه لَالَا محمد باشا على مفاوضات تسليم القلعة؛ فهل ثمّة حظّ ميمون أعظم من هذا؟ بحث إبراهيم بَجَوِي مع مندوبي العدوّ شروط تسليم القلعة، وأخمد بهذه الصورة ألمًا كان ثاويًا في قرارة نفسه، وعند تسليم القلعة للأعداء من قبلُ خاطبوه بكلمات لاذعة، فاستوفى منها اليوم.

ثمّ عاد إلى مقرّ الصدر الأعظم، وكأنّه طفل في يوم عيد:

- أبشر يا سيّدي، قلت لهم عند تسلّم القلعة أضعاف ما قالوا لنا من قبلُ لتضمّد جراحك النازفة، وقد ختمت المخازن ومستودعات الأسلحة بالشمع الأحمر.

قال الصدر الأعظم ممازحا إياه:

- سلمت يداك يا إبراهيم، هذا يعني أنّك أصلحت الخطأ الذي اقترفته من قبلُ في شأن قلعة "أَسْتَرْكُونْ".

حزن إبراهيم بَجَوِي من كلامه وصار كالح الوجه، فقال له الصدر الأعظم:

- لا تمتعضْ من كلامي يا إبراهيم باشا! الحمد لله فالراية الجليلة للدولة العليّة العثمانيّة ترفرف فوق أبراج "أَسْتَرْكُونْ" الآن؛ فلا نجعل

هـذه الأنبـاء مقصـورة علينا فحسـب، هيـا فلتَذهبْ وتُبشّـرْ سـلطاننا في أسرع وقت.

بعد تسـلّم القلعة قَبِّل إبراهيم بَجَوِي وِسـام الصدارة العظمى ووضعه علـى صدره، ولزم طريق إسـطنبول تغمره فرحة عارمـة في قافلة من اثني عشر شخصًا.

وصل إلى إسطنبول، ودخل قصر "طُوبْ قَابِي" من باب السعادة الباب الثالث للقصر، واسـتقبله السلطان أحمد الأوّل في الحجرة الخاصة بأبناء السلطان؛ قدّم إبراهيم بَجَوِي أفندي للسلطان رسالة القائد الأكرم، وعرض عليه ما يلزم فعله بعد ذلك.

ثـم نقـل إبراهيـم بَجَـوِي كلام المـؤرّخ الكبيـر لَالَا محمـد باشـا عِيانًا للسلطان:

- سـلطاني المعظـم، ثمة كلمـة لوزيركـم الأعظم لَالَا محمد باشـا أعرضها عليكم، إنه يقول:

> "لا أسأل الله شيئًا من متاع الدنيا سوى حصولنا على القلعة، فقد انتظرت عشر سنوات من أجل هذه اللحظة، فإن عشتُ سليمًا أو متّ أو عُهد إليّ بوظيفة أو عُزلت من وظيفتي فالكلّ عندي سواءٌ".

ظهرت بسـمة على الوجه النورانيّ للسـلطان الشـابّ، ورغـم أنّه كان في ريعان شبابه، فقد قال بنبرة صوت ناضجة:

- كلّا، أخبِرْه: "أننا ننتظر منه خدمات أكثر من هذا".

مـرّت سـنوات عقب هـذا، وزار الرحّالة التركـيّ أَوْلِيَـا جلبي "جامـع المحكمة" -أكبر مسجد في القلعة-، ودوّن أَوْلِيَا جلبي الكتابات التي على باب الجامع في التاريخ بهذه الأسطر:

يحاط الجامع بمقابر الشهداء

بعضهم في يمينه وبعضهم في يساره

نُودي للصلاة؛ فَصَلَّتِ الجماعة

بُنِي المسجد لمحمد المصطفى ﷺ

شهد الخواصّ والعوامّ جميعًا على ذلك

صار هذا المسجد مقامًا للشهداء

تقبل الله ما يؤدى فيه كلّه من صلوات

تقبّل الله من بانيه!







Serez
Dimetoka
Hayrebolu
Silivri
Enez
Gelibolu
Biga
Karasi
Balıkesir
Midilli
Eğriboz
Sakız
İzmit
Söğüt

عثمان غَازِي

صَاوْجِي بك

قاد "صَاوْجِي بك *(Savcı Bey)*" ثلاث مئة فارس مسلّحين بالسيوف صوب منطقة "إِينَكُولْ *(İnegöl)*"، ولم تكن ضآلة قوّاته تحول دون عظم آماله، وذلك تمام عام ١٢٨٧م؛ فقبيلة "قَايِي *(Kayı)*" عشيرة مكوّنة من أربع مئة خيمة، بيد أنّها عرضت لوالي "إِينَكُولْ" البيزنطيّ رغبةً في إقامة دولة، ولم تثبّط قِلّتهم من عزمهم؛ إذ يدركون أنّ شجرة الدُّلْب الضخمة تخرج من نواة صغيرة أيضًا.

كان عثمان بك في الصدارة والآخرون خلفه تاركين أزواجهم في منطقة "سُوغوتْ *(Söğüt)*" يبتهلن إلى الله بالدعاء لهم، وعندما علم "آيَا نِيقُولَا *(Aya Nikola)*" أمير منطقة "إِينَكُولْ" -العارف بقدوم عثمان بك نحو "إِينَكُولْ"- أنّ شرَكًا في الطريق ينتظرهم، وكانت شمس الصباح قد ارتفعت، وحُوصرت على حين غِرّة نواح لجيش عشيرة "قَايِي" العابرة من مشارف قرية "أَرْمَنِي بَلِي *(Ermenibeli)*"؛ عندئذ صاح عثمان بك كأسد انقطعت به السبل: "احذروا الشَّرَك"، وبدأت السِّهام تنهال على مقاتلي عشيرة "قَايِي" دون أن تدع فرصة لينتبهوا لصياح قائدهم؛ ففقدت عشيرة قايي ضحايا كثيرين، كانت السِّهام تنهال عليهم من كلّ حدب وصوب، وكانت الصفوف الأماميّة أوّل الصرعى، كانوا يتساقطون واحدًا تلو الآخر مثل أوراق الشجر في الخريف، وكانت الصيحات وأنفاس الشجعان تنتهي بقولهم: "الله"، تخرج من أعماق الصدور؛ صاح عثمان بَك برباطة جأش في رجاله المبهوتين:

- آسادي، لا توجلوا! تُوزْكُوتْ آلْبْ[1] !

- أمرك سيّدي.

---

[1] "آلْبْ": تعني في اللغة التركية الشجاع والبطل. (المترجم)

- فَلْنهاجم الجناح الأيمن.
- عبد الرحمن غازي!
- حسنًا، سيّدي.
- السيّد كُونْدُوزْ.
- تمام يا سيّدي.
- السيد كُونُوزْ آلْبْ!
- فهمت، سيّدي.
- هيّا... يا الله!

تجمّعت وحدة عشيرة "قَايِي" عندما سمعوا نداء "الله! الله!" مهاجمين الجناح الأيمن لطوق العدوّ المحاصِر، واستبسلت قوّات الروم، ولم يكن تمزيق الحصار سهلًا؛ فكرّر عثمان غازي المتقهقر بوحدته مهاجمة الروم؛ وفي النهاية انكسر الحصار بعد سقوط عدد من الشهداء، ونجحت قبيلة "قَايِي" في الخلاص من الحصار المضروب عليهم، بيد أنّهم خلّفوا وراءهم عشرات الشهداء، ولم يتجاسر نِيقُولَا على مطاردتهم، واكتفى بهذا مدركًا أنّ الأسد الجريح أشدّ خطرًا من السليم.

انتظرت قبيلة "قَايِي" فترة في الغابة في صمت مطبق؛ فلا يُسمع في الساحة سوى صهيل الخيل، كان انتظارًا حزينًا ووقفة حزينة؛ فصاح عثمان بك بصوت مفعم بالأسى:

- إخوتي أحبّائي، النصر أو الهزيمة كلاهما بقدر الله، وما علينا إلّا أن ننجز المهمة الموكلة إلينا، وحاشانا أن نعصي الله قائلين: "لماذا حدث هذا الأمر؟"؛ فهيّا بنا، ندفن شهداءنا!

- عند عودتهم إلى قرية أَزْمَنِي بَلِي كان في انتظارهم مشهد مفعم بالحزن والأسى؛ عشرات الشهداء: ثُلّة منهم صرعى لليدين وللفم، وأخرى أشلاء مكوّمة والسيوف في الأيدي؛ تعذّر على عبد الرحمن

غازي أن يتحمّل ما رآه؛ ففاضت عيناه، وعضّ على شفتيه غيظًا، بينما اقترب آيْقُوتْ آلْبْ من عثمان بك هامسًا في أذنه:

- أحسن الله عزاءنا جميعًا يا سيّدي.

- أحسن الله عزاء المسلمين جميعًا يا آيقوت.

ثمّ توجّه إلى عثمان بك قائلًا:

- سيّدي، ثمّة شيء أريد أن أقوله.

- تفضل آيْقُوتْ.

- سيّدي، لا أدري ما أقول، غير أنّ ابن أخيكم بَايْقُوجَهْ...

أدرك عثمان بَك الموقف؛ استُشـهد بَايْقُوجَهْ ابن أخيه الأكبر صَاوْجِي بَـك؛ كان بَايْقُوجَـهْ شـابًّا في الرابعة عشـرة من عمره لم يُبقِلْ شـاربه بعد، لقد كان قلبه أكبر من جسده، عندما سمـع أنّ الاستعدادات تُجرى للخروج إلى "إِينَكُول"، أسـرع ملبّيًا نداء الواجب، وأسلم هذا الشابّ اليافـع الروح لبارئها في هذا الفخّ الدمويّ؛ إذ كان واحدًا من نخبة الفدائيّين.

كيـف يُخبَـر صَاوْجِـي بَـك بهذا الخبـر؟ نظر عثمـان غازي مـن بعيد إلـى أخيـه الأكبـر صَارُوبَاتُـو صَاوْجِـي بَـك، ارتـاب صَاوْجِي بَـك أيضًا فـي الموقـف، وأخـذ يبحـث دون هـوادة عـن ابنه الكبيـر بين الشـهداء، وكان ينظر إلى النور المنبعث من وجه كلّ شـهيد يرفعه، كأيّ أب يبحث عـن ابنـه وأيّ ابن فقد أباه؛ اقترب عثمان بَك مـن صَاوْجِي بَك، ولم يُتح له أن يقول سوى:

- أخي الأكبر.

ثمّ عانقه بحرارة؛ فجاشـت نفسـه، وحاول أن يتجلّد عاضًا على شـفتيه غيظًـا؛ إذ سـقط الخبـر على قلبـه مثل جمرة نـار أو حديد محمـى، وجثم على قلبه مثل الجبل؛ عند ذلك حضر كُونْدُوزْ آلْبْ، وتعانق الإخوة الثلاثة، وصمتوا؛ فصمت لصمتهم كلّ شيء فجأة حتى الطبيعة، وتحدّثت التنهّدات

ليس إلّا، وتعانقوا بشدّة وكأنّهم لن ينفصلوا أبدًا، ثمّ سُمع تأويب صَاوْجِي بَك في كلّ ناحية يمزّق الآذان، ويصل إلى الغمام في السماوات:

- فليكن ألف بَايْقُوجَهْ لا بَايْقُوجَهْ فقط فداءً للإسلام الأغرّ!

احتضن عثمان بَك ابن أخيه الشهيد، وأركبوه جواده أيضًا مثل بقيّة الشهداء، وأتوا بهم إلى مشارف أَخْوان حمزة بك، أُرقد الشهداء بثيابهم فوق ربوة، وصُلّيت عليهم صلاة الجِنازة، ووارَوْهم الثرى هناك، وخرجوا إلى الطريق متّجهين شطر مدينتهم سُوغوتْ، وكان النساء والإخوة والأبناء في سُوغوتْ ينتظرون خبر النصر، وسُمع صياح طفل:

- لقد أتوا!

خرج الناس جميعًا -ومعهم مَالْحُونْ خَاتُونْ [٢] ترقب طريق زوجها- إلى مشارف مدينة سُوغوتْ، يترقّبون سماع: "انتصرنا"، كان الحزن والغمّ والكدر يبدو على وجه عثمان بَك؛ أدركت السيدة مَالْحُونْ خَاتُونْ أنّ ثمّة ما يسوء قد وقع، وكان صَاوْجِي بَك في الخلف يمسك بإحدى يديه رسن جواده وبيده الأخرى جواد ابنه الشهيد؛ جواد بلا فارس...، وكانت قبيلة "قَايِي" تدرك جيّدًا مغزى جواد يأتي خاليًا؛ توقّفت زوجة صَاوْجِي بَك مَهْلِقَا خَاتُونْ أمام ما رأته، ودوّى صدى ألم أمّ على فقد ابنها في أرجاء مدينة سُوغوتْ كلّها، ألم عميق الأغوار انهال على قلبها كأنّه جمرة نار، ونادت زوجها متمنيّة أن تكون مخطئة:

- صَاوْجِي، أوَ بَايْقُوجَهْ قد مات؟

ترجّل صَاوْجِي بك عن جواده مقتربًا من زوجته، وأمسك يدها قائلًا:

- سيّدتي، أودَعَنا ربّ العالمين أمانة، واستردّها اليوم.

تهدّج صوته، وخنقته العَبرة، وتعذّرت عليه مواصلة الحديث، ودوى أوّلًا صدى أنين مَهْلِقَا خَاتُونْ، ثمّ صوتها الذي مزّق نياط القلوب؛ سمع

---

[٢] "خاتون": تعني في اللغة التركية السيدة. (المترجم)

عثمان بَك صوت زوجة أخيه -وماذا عساه أن يفعل؟ ضاقت نفسه، وخيّم اليأس على قلبه؛ فهل ستتجشّم عشيرته الخسارة بسببه؟

لم تكتحل عينه بنوم، وكان أوّل شيء فعله في الصباح أن جمع قادته، وخاطبهم قائلًا:

- إخوتي، إذا كان ثمّة مسؤول عن هزيمتنا أمسِ فليس غيري، فاصفحوا عنّي؛ فقد قمتم بمهمّتكم على أكمل وجه؛ لا ينبغي لهذه الهزيمة أن تثبّط عزيمتنا، بل لا بدّ أن تشحذ هممنا، وأنا أدعو الله ربّ العالمين ألّا يضيع دم الشهداء هدرًا، وادعوا أنتم أيضًا، وقد جمعتكم اليوم هنا لنتشاور فيما سنفعله.

قال آيْقُوتْ آلْبْ:

- سيّدي، نِيقُولَا الذي أعرفه سيغترّ كثيرًا بهذا النصر، وسيرتكب حماقات أخرى، مثل: ضمّ الإمارات الروميّة الأخرى، وغزونا في عقر دارنا؛ فلِزام علينا أن نجد حيلة ناجعة لمواجهته.

- هل من اقتراح؟

مرّر عبد الرحمن غازي يده على لحيته الكثّة، واعتدل في جِلسته قليلًا، وبدأ الحديث قائلًا:

- سيّدي، لو سألتموني عن رأيي، فإنني أقول: علينا أوّلًا أن نستولي على قلعة "قَرَجَهْ حِصَارْ *(Karacahisar)*"؛ لئلا يُتاح لنِيقُولَا بعدئذٍ أن يضمّ الإمارات الروميّة الأخرى؛ فالعدوّ مثل الكلب؛ إذا علم أنّه لا خوف منه، ذهب يجرّ أذيال الخزي والعار، وإذا فهم أنّنا نخافه، فسيتسلّط علينا.

اتّفق معه آيْقُوتْ آلْبْ وكُونُوزْ آلْبْ في هذه الفكرة، فأجابهم عثمان بك:

- فهمت المسألة، ووافقت على رأيكم؛ فلنفتح قلعة "قَرَجَهْ حِصَارْ" أوّلًا، وليجهّز كُونُوزْ آلْبْ ما يلزم لهذا الأمر.

- طوع أمرك سيّدي.

قال عبد الرحمن غازي:

- ولنضع معك خِطَطًا للفتح.

- كما تشاء سيّدي.

تعاقبت الشهور، والاستعدادات جارية للفتوحات، والرجال يُعدّون أسلحة يواجهون بها الأعداء، بينما كانت النساء في شغل بإعداد الأطعمة الشتويّة، وكان من الضروريّ أيضًا تهيئة الأبدان للجهاد، فكانت التدريبات صباح مساء تتمثّل في رمي السهام ومسابقات الجريد، وألعاب الكرة، وكانت عشيرة "قَايِي" تضمّد جراحات أصابتها في "أَزْمَنِي بَلِي" كي يُتاح لهم الانتصاب من جديد في مواجهة العدوّ، كانت حربًا، والشرط الأساسيّ للسلامة فيها أن يعلم العدوّ أنّك على أُهْبة الاستعداد دائمًا.

اشتدّت حرارة الشمس في سُوغوتْ؛ فجلس عثمان بَك مع عبد الرحمن غازي في ظلّ شجرة، وتحدّثا عن سُبُل ستفتح بها قلعة "قَرَجَهْ حِصَارْ"، وكان عثمان بك يخطّ أشياء على الأرض بقضيب في يده، وكان صَامْصَهْ جاووش أيضًا يعرض آراءه، رفع عثمان بَك رأسه على صوت فارس جاء يعدو من بعيد مثيرًا الغبار، يبحث عن عثمان بَك ويصيح متأثرًا؛ نهض عثمان بَك قائلًا:

- ها أنا ذا، هلمّ إليّ.

توجّه الفارس فورًا دون أن يقلّل سرعته إلى عثمان بَك فقال الأخير:

- خيرًا، ما سبب هذا الارتباك؟

- يا سيّدي، الأحوال شديدة الخطورة؛ أبرم نِيقُولَا أمير "إِينَكُولْ" اتفاقًا مع أمير "قَرَجَهْ حِصَارْ"، وسيغزوننا بجيوشهم.

احتدّ عبد الرحمن غازي فجأة:

- لا ريب أنّه لا يُتوقّع من نِيقُولَا شيء غير هذا؟

تنفّس عثمان بَك الصُّعَداء، وفكّر مليًّا، وقال برباطة جأش:

- حسـنًا، هـل يأتون من ناحيـة "بِلَجِيـكْ *(Bilecik)*"، أم من ناحية "طُومَانِيخ *(Domaniç)*"؟

- من ناحية طُومَانِيخ يا سيّدي.

- حسنًا، هذا يمنحنا بعض الوقت.

ثمّ خطب عثمان بَك في قادته قائلًا:

- إخوتـي، بينمـا نحن نقول: علينـا أن نفتح قلعة "قَرَجَـهْ حِصَارْ"، إذ بنِيقُولَا يتّفق مـع أمير "قَرَجَهْ حِصَارْ" ليأتي إلينا يغزونا في عقر دارنا، فلِزام علينا أن نتأهّب بأقصى سرعة.

قال كُونْدُوزْ آلْبْ:

- سيّدي، أين ستقوم المعركة؟

- أخـي الأكبـر لِـزام علينـا أن نقاتـل خـارج مدينـة سُـوغوتْ ما أمكننا ذلك.

- فلنتأهّب بسرعة الآن، ولنلاقِهم في "طُومَانِيخ".

- استعدّوا حالًا.

هُـرِع مـن كان في المجلـس، وذهب كلّ إلى عملـه، وأخذ عثمان بَك أيضًا سِـهامه، وكِنانته، وتُرسه من خيمته، وودّع زوجته، وعند خروجه من الخيمة قال لزوجته:

- ادعـي الله لنـا يـا مَلْخُـونْ، ولتـدعُ العشـيرة جميعهـا لأزواجها، وأبنائها، وآبائها، ادعوا الله ألّا يخزينا في غزونا.

- إن شـاء الله سـيّدي، لا حرمـك الله مـن قيـادة عشـيرتنا وقبيلتنـا ولا حرمنا منك! في أمان الله في كلّ وقت وحين!

كانت عشيرة قايي تتّجه بسرعة صوب منطقة طُومَانِيج؛ بضع مئات من الفرسان شقّوا طريقهم -يظلّلهم مُثار النقع- بكلّ ما أمكنهم من سرعة في صمت تامّ، وكان يقودهم عثمان غازي، وحوله أخواه الكبيران كُونْدُوزْ آلْبْ وصَارُوبَاتُو، ومعهما آيْقُوتْ آلْبْ، وكُونُوزْ آلْبْ، وعبد الرحمن غازي؛ بدأت الشمس تغيب عن الأفق، وعندما تدثّر وجه السماء بلون النار المتثال بين الحمرة والصفرة، بدت من بعيد منطقة طُومَانِيج، واتّخذ الحرّس المناوبون أماكنهم، ولم يظهر العدوّ في أيّة ناحية، وكان جمال الليل مختلفًا على هضبة طُومَانِيج؛ فآلاف النجوم تشاهد عشيرة "قَايِي"، والهواء من جبل "يِرْجَه *(Yirce)* " يحرّك أوراق الشجر؛ غطّ كلٌّ بموضعه في النوم عدا الحرّاس إلا رجلًا واحدًا؛ كان عثمان بَك يبتهل إلى الله تعالى بالأدعية في جُنح الليل، سيكون غدًا جهاد عظيم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، كان يقول: "ربِّ، ليس لي ولا لعشيرتي رغبة سوى أن ننال رضاك عنّا؛ فانصرنا في حربنا غدًا"، ثمّ نظر إلى جنوده، طائفة منهم نائمة في الخيام وأخرى خارجها؛ هي الحرب، غدًا سينال بعضهم شرف الشهادة هنا، ولن يستطيعوا العودة إلى سُوغوتْ، وعندما انبلج الفجر في جبال طُومَانِيج، نهضت أفراد العشيرة جميعًا، وبعد صلاة الفجر خطب في جيشه بصوت جهير قائلًا:

- قادتي، شجعاني، جنودي، فلندعُ الله جميعًا أن ينصرنا في هذه الحرب، نحن نؤمن بقوّة الدعاء وأنّ النصر والهزيمة كليهما بقدر الله، فغاية ما علينا أن نؤدّي مهمّتنا كما ينبغي؛ ففي هذا اليوم سيقدّم بعضنا دماءه هنا، وسيقدّم بعضنا الآخر أرواحهم؛ فليسامح كلّ منّا أخاه.

وكأنها ليست بصلاة الصبح بل كأنها صلاة العيد؛ تعانقوا جميعًا راجيًا بعضهم المسامحة من بعض: "سامحني يا أخي، سامحني يا سيّدي، سامحني يا قائدي".

عانـق عثمـان بَـك أخويـه الكبيريـن كُونـدُوزْ آلْـبْ وصَارُويَاتُـو، ثـمّ قادتـه واحـدًا تلو الآخـر طالبًا السـماح منهم، ثمّ جمـع قادته، وتشـاوروا فـي كيفيّـة شـنّ الحـرب، وتحدّثـوا عن طبيعـة مهمّتهـم، اقتربت سـاعة الظهيـرة، وتـراءى للعيون غبار يتعالـى من بعيد؛ قدم جيـش أمراء الروم؛ كان مـن المقـرّر أن يهاجموا جميعًا الروم؛ تشـنّ أوّلًا وحـدة تحت قيادة صَارُويَاتُو هجومًا مباغتًا متتابعًا يُربك العدوّ ويمحوه محوًا فلا يجد فرصة للتجمّـع، مستغلين ما أصاب الروم من تعب ونَصَب جرّاء السفر الطويل، وفـي تلـك الأثنـاء اقترب جيـش الروم بقضّـه وقضيضه وحـدّه وحديده؛ ووفقًا للتقاليد المتّبعة في الحرب، سيرسـل عثمان بَك أحد جنوده سـفيرًا إلى جيش الروم؛ قال عثمان بَك للسفير:

- أبلـغ نِيقُـولَا: "همّنا ليس محاربته؛ فليعتنـق الدين الحقّ، ويترك أرضنا أو يستسلم؛ فإن أصرّ على الحرب، فلن أكون عثمان بن أَرْطُغْرُلْ غازي سيّد عشيرة "قَايِي" إن لم أضيّق الخناق عليه؛ فليحذر أن يسقط في يدي، وإن حدث فلا يطلبنّ منّي الأمان".

- ذهب السفير بسرعة إلي جيش الروم، وأوصل الرسالة إلى نِيقُولَا؛ بدأ نِيقُولَا يقهقه فوق جواده حتى تراقصت فرائصه رغم تدثّره بالدرع، ثمّ بدأ الروم يقهقهون، التفت نِيقُولَا إلى من حوله قائلًا:

- هل سمعتم؛ عثمان الذي لا يبلـغ جنوده نصف جنودنا يتحدّانا؟

- انظـر إليّ أيّها الرسـول، اذهب إلى سـيّدك؛ فمـن يناطحنا نقطـع رأسـه، وقـل له: "استسـلموا الآن وإلّا فالعاقبة وخيمـة، ولن نُبقي من عشيرتكم رجلًا واحدًا".

بينما كان نِيقُولَا يقهقه، رجـع رسـول عثمان بَك إليه، وأخبره بالحال؛ فصاح عثمان بَك بصوت مرتفـع فيمن حوله:

- هيّا يا أبطال، بقي شيء واحد سنفعله؛ إنه قتال الكافرين.

هاجمت وحدة صَارُوبَانُو جيش الروم بسرعة فائقة وَفقًا للخِطّة المطروحة، وكانت نداءات: "الله، الله" الصوت الوحيد المسموع في نواحي طُومَانِيخ، ترجّعه الجبال، ووجد صليل السيوف وصوت التقارع وجلبة المعركة وصوت مزامير عزفها الروم ما يقابلها من أصوات التكبير والتهليل الصادرة عن عشيرة "قَايِي"، فتعانقت الأصوات في السماء وتعانق الأبطال في الأرض؛ وبدأت الوحدة المهاجمة أوّلًا في التراجع بسرعة، وتعقّبها أمير قلعة "قَرَجَهْ حِصَارْ" وأمير "إِينَكُولْ" بجنودهما، يركضون خلفهم وهم يتصايحون:

"هربت عشيرة قَايِي، هيّا؛ فلنقبض عليهم، وليأتِ من يريد حظًّا من الغنيمة".

ثمّ قال نِيقُولَا:

"لا تتركوا أحدًا من عشيرة "قَايِي"، وليعلموا كيف يتجرؤون على الخروج ضدّ نِيقُولَا"؛ فعَدَوْا خلفهم حانقين مغتاظين؛ من يدري كم نفس ستسيل على ظُبا السيوف الصارمة في أيديهم ثم يرجعون بالغنيمة؟ وكم سيغنمون؟! حتى إنّ الغنائم لتلوح أمامهم في حومة الوغى، وربّما ينالون المكافآت الكبيرة!

كان لدى الروم خِطّة، كما كانت هناك أشياء يعلمها عثمان بَك... ذَهِل جيش الروم المتعقِّب بخطًى حثيثة وحدة عشيرة "قَايِي"؛ إذ توقّف الهاربون فجأة عائدين، ووقف الروم كذلك، كان الصمت يسبق العاصفة، لم يسمع صوت سوى عاصفة تهبّ من جبل "يِرْجَهْ *(Yirce)*"، علاوة على صهيل الخيل؛ أشهر قائد الروم سيفه، وصاح قائلًا: "اهجموا"، ولمّا أشهر سيفه في الهواء، أشار أحد الجنود بجواره إلى شيء ما؛ إذ أُحيطوا بمقاتلي عشيرة "قَايِي"، حينئذٍ ظهر رُماة السهام عن أيمانهم وعن شمائلهم؛ وسقط الروم في الشَّرَك؛ هجم عثمان غازي، وهجم كُونْدُوزْ آلْبْ، وآيْقُوتْ آلْبْ، وعبد الرحمن غازي، وطُورْكُوتْ آلْبْ قائلين: "هيّا... يا الله"، لا سيّما أنّ طُورْكُوتْ آلْبْ كان يقتحم بصحبة

رجالـه صفوف الأعداء مثل الصقر، وقضى قضـاءً مبرمًا على جنود أمير "إينَكُولْ"، وكذلك جنود أمير "قَرَجَهْ حِصَارْ" على حدّ سـواء، وفرّ نِيقُولَا مــع بعض جنـده، ونجا من الموت بأعجوبـة، وكان عثمان بَك في غاية السـعادة، وهو يردّد: "اللهّم لك الحمد والشـكر".

وهنـاً قادته واحدًا تلو الآخر في ميدان القتال، وبحث فترة عن آيقُوتْ آلْـبْ، وقُونُـوز آلْبْ، وعبد الرحمن غـازي، وأخيه الأكبر كُونْـدُوزْ آلْبْ، وقرّة عينه صَارُوبَاتُو؛ يا ترى، أين هم؟ صاح:

- آيقُوتْ آلْبْ.

- نعم، سيّدي.

- أين أخي الكبير صَارُوبَاتُو؟

- سيّدي، ما رأيته بعد الهجوم الأوّل.

- هل رأيته يا كُونُوزْ آلْبْ؟

- كلّا، سيّدي.

- يا ترى، أين هو الآن؟

تجمّعت عشيرة "قَايِي" شيئًا فشيئًا، وبينما كانوا يستعدّون للرجوع إلى سُـوغوتْ رأوا فارسًـا جاء يعدو، غطّاه مُثار النَّقْـع، يتخطّى جثث الأعداء، كان شـابًا يانعًا، طرّ شـاربه، ترجّل الشابّ عن جواده لاهثة أنفاسه، وهُرع إلى جوار عثمان بَك، وصاح:

- سيّدي!

لم يقوَ على الكلام، وحاول أن يأخذ نفسًـا عميقًا؛ فلم يستطـع، كانت فرائصه ترتعد، تغيّر وجهه وَجَلًا، حاول التماسك مرّة أخرى:

- سيّدي... صَارُوبَاتُو...

نظر عثمان بَك إلى الشابّ رافعًا حاجبيه الأسودين الطويلين، وقال:

- أخبرني يا بنيّ، ماذا حدث؟

- سيّدي، صَارُوبَاتُو... لقد استُشهد صَارُوبَاتُو...

في لحظة واحدة ارتفع صوت تصحبه الآهات: "يا الله، إنّا لله وإنا إليه راجعون" من العشيرة كلّها، وتأوّهت النواحي كلّها بهذا الصوت يتردّد صداه من جبل يِرْجَه، ومن هناك إلى الغاب، وارتفع من هناك إلى السماوات؛ ثمّ بَكت العشيرة بكاءً أبكى الأحجار والخيل...، ودعوا دعاءً ضارعًا لله الخالق، بعضهم لم تحمله قدماه؛ فخرّ صريعًا، وبعضهم اتّكأ على شيء، سقطت السيوف من أياديهم، وقُذفت الدروع؛ فخرّ الشجعان الذين يقاتلون الروم بضراوة؛ خرّوا صرعى ما إن بلغهم الخبر!

- أين جسده؟

- سيّدي، بُعَيْدَ المكان الذي هجمنا منه أولًا بقليل.

هُرع عثمان بَك، وامتطى جواده، وذهبت العشيرة كلّها أيضًا خلفه؛ كان صَارُوبَاتُو صَاوْجِي راقدًا تحت شجرة صنوبر، وتعلو وجهه ابتسامة رقيقة؛ لعلّه كان سعيدًا بطيرانه من دار الدنيا إلى مثواه في الجنة! ولعلّه كان سعيدًا ببذل روحه وإراقة دمه في سبيل دين الإسلام المبين؛ ترجّل عثمان بَك قائلًا:

- أخي الكبير.

كان غارقًا في دمائه؛ كان كلّ جزء منه مضرّجًا بالدماء، أمّا وجهه فكان منيرًا ناصع البياض؛ هل غسل الملائكة الكرام وجهه، أم أنه يتلألأ نورًا من الفرح؟ لم يتحمّل قلبه هذا المنظر، فحزن حزنًا شديدًا، وعانق بشدّة جثة الشهيد، وتفجّرت ينابيع البكاء؛ وبكت معه قبيلة "قَايِي" قاهرة العدوّ في حومة الوغى! وفي أثناء القتال أضحت جبال وأحجار أنّت لصيحات "الله، الله" تتأوّه الآن لتلك التنهّدات؛ واهًا على صَارُوبَاتُو لم يمضِ على استشهاد ابنه غير سنة، لقد أحيا ذكراه، وسلك هو أيضًا السبيل نفسه، وذهب إلى جواره، ثمّ أتى كُونْدُوزْ آلْبْ -وهو من لا تقوى

الجبال الرواسي على مواجهته، رمز الشجاعة والبسالة، شجرة الدُّلْب الضخمة، الابن البِكْر لأَرْطُغْرُلْ غازي، وظِلّه الحيّ، الزاهد في الدنيا حتى إنّه سيترك الإمارة لأخيه القريب من الله بحثًا عن الشهادة في ساحة الجهاد وجثم أمام عثمان بَك، وعضّ على شفتيه غيظًا، وحدّق؛ وتعذّر عليه أن يملك زمام نفسه؛ فخرّ كحجر تردّى من جبل، انهمرت الدموع من عينيه على أخيه الشهيد، ولا ريب أنّ الشهداء يُدفنون بلا غُسل أو كفن، بيد أنّ الأخوين غسّلاه بدموع أعينهما.

أَفَلَ نجم آخر؛ كان عين ميادين الوغى وأبسل المقاتلين، رحل الأخ الكبير لعثمان بَك، والد بَايْقُوجَهْ الشهيد زوج مَهْلِقَا خَاتُونْ، رحل مثل كلّ فانٍ، مثلما سيرحل كلّ إنسان، بيد أنّه لم يكن ليرحل إلى العالم الآخر مثل كلّ إنسان؛ إذ أحضر بجواره سُترة، وسروالًا، وعمامة مضرّجات بالدماء، ولعلّه في رضا الله، لقد ذهب ومعه ملابسه لتكون دليلًا بلسان الحال على ما فعل في هذه الدنيا؛ أركبوا جسده المرّة الأخيرة ظهر جواده، وربطوه؛ واهًا عليك يا صَارُوبَاتُو؛ كان يجري كالطائر على جواده بل كأنه عاصفة، أمّا الآن فأركبوه آخر مرّة مقيّدًا، واتّجهوا صوب مدينتهم سُوغوتْ؛ كان عثمان غازي يفكر فيما سيقوله لمَهْلِقَا خَاتُونْ، وقد حانت صلاة العصر عند وصولهم إلى مدينة سُوغوتْ، وكانت العشيرة عن بكرة أبيها تنتظرهم على الطُّرُق، ومئات الفرسان صامتون، يأتون كنهر جارٍ بهدوء، وكانت مَهْلِقَا خَاتُونْ أيضًا في الخارج، ومَالْحُونْ خَاتُونْ والعشيرة جميعًا نساءً وأطفالًا ومسنّين، كلّ ينتظر خبرًا سيأتي من أحدهم؛ لم يستطع أحد أن يفسّر هذا الصمت بادئ الأمر، ثمّ ظهر الشهداء في الخلف، شهداء أقبلوا مقيّدين على ظهور جيادهم، وفي مقدمتهم صَارُوبَاتُو الشجاع العظيم، علت هذه المرّة صيحة في القبيلة، لم يستطع أحد أن يصدّق عينيه، وما كان يريد أن يصدّق، ثمّ سُمع صوت يقول: "استُشهد صَارُوبَاتُو صَاوْجِي".

ذهب عثمان غازي أوّلًا إلى مَهْلِقَا خَاتُونْ، فتجمّدت في مكانها أمام ما سمعته وما رأته، توقّف الزمان والمكان من أجلها، فلا نَهر سُوغوتْ ينهمر، ولا ثمّة صوت يأتي، انتظرت على هذه الحال هناك، حاول عثمان بَك أن يتكلّم:

- زوجة أخي.

لم تستطع أن تجيب؛ فناداها مرّة أخرى:

- زوجة أخي، أخي الكبير صَارُوبَاتُو استراح من نكد الدنيا، وذهب إلى جوار ابنه بَايْقُوجَهْ.

لم تستطع أن تقول إلّا:

- استراح حقًّا، استُشهد في سبيل الله.

هُرعت مَهْلِقَا بوجهها المكفهّر إلى جثة زوجها وعانقته قائلة: "سيّدي، عماد بيتي، صَارُوبَاتُو"، وتجمّد كلّ شخص في مكانه، واستمرّت في حديثها:

"رحل أوّلًا بَايْقُوجَه، والآن رحلت أنت يا بطلي، ماذا لو أخذتني معك! ماذا سأفعل دونك صَارُوبَاتُو؟ زوجتك مَهْلِقَا ستصبر حتى تلحق بك، لا تنسنا يا شهيدنا يوم الحشر".

دفنوا صَارُوبَاتُو في ثيابه المضرّجة بالدماء، وأفل هذا البطل مثل النجم؛ نجم سيعيش في القلوب، وقد رُزق عثمان غازي وقتئذٍ بمولود وسمّاه صَاوْجِي، كي يحمل اسم عمه الشهيد.

وهكذا ضحت الدولة العثمانيّة التي كانت نورًا للإسلام واختمرت فيها دماء الشهداء وأدعية الناس بكثير من أمثال صَاوْجِي بَك في كلّ حرب خاضتها؛ وما الشهادة إلّا تَذكار شرف منهم لنا.







الجنود العثمانيون الذين يحملون اللواء



الطلاب العسكريون







الجنود العثمانيون في جبهة "كَافْكَاسْ"



المطابخ المتنَقلة على جبهة غزة